13

جولة مكوكية واحدة متعددة الأطراف

كآبة ما بعد الرباط

نظـراً لأن الربـاط تصدَّر الخيار الأردني ولأن إسرائيل رفضـت أي تسوية جزئية مع سورية، فقد كان إجراء مفاوضات مصرية إسرائيلية هو البديل الوحيد المتبقي، علاوة على استئناف مؤتمر جنيف متعدد الأطـراف، والـذي كنا نتمنـى تجنبه. ولكن المنطـق المجرد نادر علـى الصعيد الدبلوماسـي في الشرق الأوسـط. فحتـى إذا بدت الأطـراف متفقة على الخطوة التاليـة، كان كل طرف منها يسيـر وراء أهداف تختلف عن أهداف باقي الأطراف.

كان السـادات مستعـداً للتخلـي عن الجبهـة العربية الموحدة، التـي كان قد ساهم للتوفـي تشكيلها في الربـاط، إذا استطـاع أن يحقق بعض الإنجازات الهامة. لذا فقد أعلن عن شروطـه الدنيا لعقد اتفاق زمني حول سيناء وممري: الجدي ومشلا اللذين يبعدان مسافة خمسين ميلاً عن قناة السويس وحقول نفط أبو رديس على الساحل الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة، نظراً لكونهما معالم حساسة في بحر الرمال غير المأهول.

ولكن إذا كان الانسحاب على ذلك القدر من الأهمية كما يدعي السادات، فإن إسرائيل كانت مضطرة لطلـب بعض المطالب السياسيـة الأساسية. فقد وجدت في ذلك الادعاء نهاية حالة الحرب الرسمية بين إسرائيل ومصر.

اتخـذت رقصة المينووية التي رقصها السـادات والإسرائيليون فيما بعد، بأسلوب وشكل يتناسب مع إدراك كل طـرف للأهمية المطلقة لمطالبه، طابعاً رمزياً. فإلغاء حالة الحرب هو إشارة واضحة لا يمكن إنكارهـا نحـو تحقيق السلام، بينما لم تستطع تلك الممرات التأثير في الوضع العسكري بشكل فعال. كان الأخيـر منها يمثل أحـد الاقتراحات التي تقدم بها الفريقان المتفاوضـان المصري والإسرائيلي، كما هو واضح من الحوار التالي الذي دار في اجتماع لمجلس الوزراء الإسرائيلي في 18 آذار 1975 في القدس:

كيسينجـر: ثم قال الجمسي (وزيـر الدفاع المصري): إنه من الهـراء استخدامها (الممرات) في منـاورات هجوميـة؛ فهي تصلح فقط مع كتائب المشاة، أما المعـارك الحاسمة سوف تتم في الشمال وستعرفون فيما إذا كان محقاً.

رابين: أساساً، هو على حق.

وبما أن هذه القضية أصبحت أساسية في المناظرة، بل فمن الضروري فهم ما هو مقصود بالانسحاب الإسرائيلي من الممرات والذي فُهِمَ من سياق المفاوضات. ومع تطور المفاوضات لم يطلب من إسرائيل التخلي عن الممرات بحيث تكون تابعة للسيطرة المصرية، بل لتكون تحت إشراف قوات من الأمم المتحدة يقرها الطرفان. لن تكون القوات المصرية موجودة على مسافة أقرب من عشرة أميال من الممرات وستوضع هذه القوات في منطقة ذات تسليح محدود بهدف منع قيام أي عمليات هجومية. كما ستبعد أقرب نقطة للقوات المصرية، والتي من خلالها يمكنهم القيام بعمليات هجومية، مسافة خمسين ميلاً عن الجانب الآخر لقناة السويس التي، بعد إعادة فتحها للملاحة، ستشكل بدورها عقبة أمام أي هجمات مباغتة.

ومن المعروف للجميع أيضاً أن حقول نفط أبو رديس كانت في طور النفاد، أما الخلاف الوحيد الفعلي بشأنها، فقد كان حول ما إذا كانت ستعطي نفطاً خلال الستة أو الأربعة أعوام القادمة. كما أن إحدى النقاط التي أثارها تسليم هذا الحقل التعويض الذي يجب أن تتلقاه إسرائيل عن نفط أبو رديس في السوق العالمية. ومع ذلك، فإعطاء الانطباع بأن الأهمية الجوهرية لأي اتفاقية تتناسب مع مدلول أهميتها الرمزي كان يخدم مصالح الطرفين المحلية؛ فالنسبة للسادات، كان من شأنها تبرير مسلكه الفردي المنفصل عن باقي الصف العربي؛ وبالنسبة لرابين، كان ذلك عبوراً للخط الفاصل بين اتفاقيات وقف إطلاق النار وبين تلك التي تسجل القيام بخطوة حقيقية تجاه السلام.

أما العائق الأكبر الذي يقف في وجه التطور السريع لعملية السلام فقد كان عائقاً نفسياً: إذ لم يكن الفريقان قد التقيا مع بعضهما بعضاً وجهاً لوجه من قبل، لذا فإنهما كانا يميلان لسوء تقدير مدى تأثير مطالب كل منهما في الآخر، كما كان كل طرف يلقي اللوم على الوسيط في حال عدم انتصار وجهات نظره وطروحاته. فالسادات كان يعتقد أن الأمم المتحدة قادرة على أمر إسرائيل بالإذعان لأي مخطط نراه مناسباً. أما الزعماء الإسرائيليون، الذين كانوا مؤخراً ضحية هجوم مصري مفاجئ، فقد وجدوا من الصعوبة الثقة بما نقلتُه لهم عن اعتدال السادات. فقد كان المفاوضون الإسرائيليون ـ لاسيما إيغال آلون ـ يحذرون في كل اجتماع تقريباً من كون السادات على وشك العودة إلى التحالف مع السوفييت (الأمر الذي كنت أعتقد أنه سيلجأ إليه فقط بعد وصول مسار السلام إلى طريق مسدود) أو من أنه مستعد لخرق أي اتفاق يقوم به (وهو الأمر الذي كنت أرى أنه احتمال ضعيف في حال انفصال السادات كلياً عن السوفييت وعن مقررات الرباط).

غالباً ما كان الانقسام الموجود في الحكومة الإسرائيلية يقيد مرونتها في المفاوضات بشكل كبير. فرابين يفضل عقد اتفاقية مع مصر، وآلون يفضل عقدها مع الأردن، أما بيريز فقد كان يلح على إعاقة

عقـد أي اتفـاق. وهكـذا كان حال أغلبيـة أعضاء الفريـق المفاوض بالنسبـة للقيام بأي خطـوات مؤقتة معقولة.

قـد يكون وضـع المفاوضين الإسرائيليين غير مستقر ومزعزعاً في أغلـب الأحوال، ويرجع هذا لكون الوزارة الإسرائيلية تمثل تحالفاً يضم أشخاصاً متنافسين، بل وأحزاباً متنافسة، ويمثل الموقف الإسرائيلي الأولـي عـادة خلاصة ما يفضله الوزراء الأساسيون ـ ولاسيما في حـال غياب وجود رئيس وزراء مسيطر، كما كان الحال أثناء حكومة رابين الأولى. إذ عدل المفاوضون الإسرائيليون مواقفهم فقط بعد أن برهنوا لزملائهم ولأنفسهم بأنه لم يتبق المزيد من الدماء لتنزف بحجر أو بتحميل الوسيط في حال وجوده ـ كما كان عليه الحال أثناء الرحلات المكوكية ـ ذنب عدم تحقيقهم لما يريدون بأفضل الشروط.

لا يسع المتمرسون في مثل هذه العملية، في مثل هذه الأحوال المثيرة للأعصاب إلا أن يحملوا أنفسهم علـى الابتسـام ـــ ولو باقتضاب ـــ وأن يرغموا أنفسهم على لعـب الدور الموكل إليهم مـن قبل محاوريهم باعتبـاره ثمنـاً لأي تسوية نهائيـة. وما دفع بالحوار إلى حافـة معينة أثناء المفاوضات علـى اتفاق سيناء كان تغيير رئيس الوزراء الإسرائيلي. فلو أن غولدا مائير قادت تلك المجادلات والمنازعات الحتمية بروح ساخـرة تهكميـة لَوصلتْ إلى حافة معينـة بعيدة عن المواجهة، ذلك أن أسلـوب رابين العقلاني والمتميز بحِرَفيّتـه سـوف يعمـل على تحسين وتقريـب وجهات النظر حـول نقاط الخلاف أكثر مـن مجرد تلطيف الأمور.

وعلـى الرغم من أن أصدقـاء الزعيمين قد يعتبرون المقارنة بينهما غيـر واردة على الإطلاق، إلا أن هناك بعض أوجه الشبه الملفتة بين إدارة رابين في فترته الأولى في الحكم، وبين خلفه بنيامين نتنياهو. فـكل منهما قد تبـع زعماء حزبه من الجيـل الأول. وكل منهمـا كان ينقصه في البدايـة النفوذ والاعتبار والهالة التي أحاطت بالزعماء الأوائل، ويشعر بالحاجة الدائمة للدفاع عن نفسه أمام المطالبين الآخرين بعبـاءة الحكـم. ولهذا السبب، إلى حد ما، أراد الاثنان إرجاء عملية السلام وقاما ببعض حركات الحماية الدفاعية الماهرة من أجل تسوية بعض الأمور الملّحة المحلية والعالمية لقد أربك الاثنان واشنطن.

ولكـن بينمـا كان رابيـن يحاول دوماً أن يُعلـم حلفاءه الأمريكييـن الذين لا غنى له عنهـم بالأولويات الضروريـة الخاصة ببـلاده، بينما كان نتنياهـو يتحاشى الدخول فـي مناقشات حول الأمـور الجوهرية، وحـاول ما أمكنـه أن يُبطئ مسار عمليـة السلام وذلك بجرها إلـى مستنقع الشـؤون السياسية الداخلية الإسرائيليـة. إلا أن إصـرار رابين على الوضوح الفعلي والجوهـري بنى مع مرور الوقت جسراً عبر الخليج مـع واشنطـن، مؤدياً إلى شراكة حقيقية فيهـا الكثير من التعاطف والمودة؛ أمـا نتنياهو، حتى كتابة هذه السطـور، فمازالـت تغريه اختبارات القوة، التي، حتى في حال وجـود اتفاق عرضي، أبقت على حالة عدم التفاهم المشترك على ما هي عليه.

أمـا بالنسبة لفورد، فإنه كان في الإدارة منذ شهرين فقط، وكانت تعوزه الدرجة اللازمة من التجرد. كان يفسـر الخطـط المتعثرة للترويـكا الإسرائيلية التـي يقودها رابيـن وبيريز وآلون علـى أنها انعكاس لتقديرهم بأنه أضعف من أن يواجه مؤيدي إسرائيل في الكونغرس. وقد حذرت السفير الإسرائيلي سيمحا دينيتز ورابين مراراً من عدم الخلط بين النوايا الطيبة التي يحملها الرئيس فورد وبين الضعف. فالرئيس يولـي بلا شك اهتمامـاً خاصاً بآرائهمـا، ولكن لا يمكن لأي رئيـس أمريكي مسؤول أن يعلـق المفاوضات الدبلوماسية الخاصة بالشرق الأوسط ريثما يحل مجلس الوزراء الإسرائيلي خلافاته الداخلية.

للأسف فإن صداقتي الشخصية مع الزعماء الإسرائيليين أثبتت أنها عائق أمام عملية السلام عوضاً عـن دفعها نحو الأمام. فنظراً لكون صداقتي مع رابين وآلون تمتد لعدة سنوات، كنا نحن الثلاثة مقتنعين أن التعارض الكامل مستحيل لأنـه في اللحظة الأخيرة قد يغير أحد الأطـراف رأيه راخياً الحبل للطرف الآخر. كان لدى آلون تحديداً يقينياً داخلياً بقدرتي على إنجاح المفاوضات، وكان يعزي نفسه في كل مرة تصـل فيهـا المفاوضات إلى طريق مسدود بـأن هذا التعثر هو مجرد مقدمة عارضـة للحل النهائي، على الرغـم مـن أن شكله لم يتحدد بعد. فلم يخب إيمانه بي من جهة فتـح باب المفاوضات مع السوريين وفق تأكيداتـه. ولـم يرد آلون علـى الادعاء الذي واجهه بأن الفوز مرة في لعبـة الروليت لا يعني أن يبني الفرد آماله على دوران عجلتها لتحسين ميزانيته السنوية.

بقيت صداقتي برابين وآلون ثابتة برغم العقبات والنهايات المسدودة المؤلمة التي كنا نصل إليها. إلا أن بعضـ مؤيدي إسرائيل الأمريكيين، ولاسيما بين الأوساط الفكرية، انقلبوا ضدي. وأصبح دفاعهم عن إسرائيل مشحوناً بنقد الانفراج الحاصل في العلاقات باتهامهم لي ولفورد بالتخلي عن إسرائيل من أجل استرضاء الاتحاد السوفييتي ـ بغض النظر عن أن الهدف الأول من جهودنا الدبلوماسية كان التقليل من، وإن أمكن، إلغاء دور السوفييت الكبير في الشرق الأوسط.

علـى أي حـال لم يكن بمقدور تلـك المصارعة والمثاقفة حـول انفراج التوتر أن تغيـر من حقيقة أنه كان لإدارة فـورد رأيـان: إما اتباع حل الخطوة بخطـوة (الذي يعني التفاوض علـى اتفاقية مؤقتة جديدة مـع مصر) وإما طلـب إعادة عقد مؤتمر جنيف بحضـور الأطراف المعنية كافة فـي محاولة للتوصل إلى تسويـة شاملة (مما يعني إشراك الاتحـاد السوفييتي). وفي مؤتمر جنيف، كانت علاقتنا السيئة بالاتحاد السوفييتي، التي أفسدها انهيار الاتفاقية التجارية بيننا، بالإضافة إلى عدم التوصل إلى اتفاق حول قضية SALT، ستشجع الكرملين بالتأكيد على تأييد البرنامج العربي الراديكالي بقوة أكبر، وبمصادقة حلفائنا الأوروبييـن واليابـان. وبالرغم مـن أن رابين وآلون لم يعارضا هذا التحليـل، إلا أنهما فيما يبدو كانا غير مستعديـن أو غيـر قادرين على التجاوب مع مطالب فـورد ومطالبي المتكررة، بتطويـر المفاوضات وبدء اتباع نهج دبلوماسي بديل.

وصل آلون إلى واشنطن في الثامن من كانون الأول 1974 ظاهرياً من أجل تطوير استراتيجية مشتركة، إلا أنـه لـم يكن مخولاً بالذهاب إلى ما هو أبعد من عرض رابيـن النظري الذي قدمة في أيلول. وقد طرح بعضـ الآراء المحددة حول ما تطلبـه إسرائيل من مصر دون أن يوضح موقـف الحكومة الإسرائيلية مما يتوجـب عليهـا إعطاءه بالمقابل. نظـراً لأن أي اقتراح أو عرض إسرائيلي رسمـي يتطلب موافقة المجلس الحكومـي، الأمـر الذي لم يكن متوقعاً. قدم آلون قائمة بعدد من الإجـراءات التي وصفت بأنها «مفاهيم» فعالـة لمنـع احتمـال استئناف مصر الحـرب ضد إسرائيـل. من تلك الإجـراءات عدم تواجـد جند في المناطـق التي ستخليها القـوات الإسرائيلية؛ وتعهد مصر بعدم المشاركة فـي أي حرب ضد إسرائيل قد تشنهـا بعض الدول العربيـة؛ وإنهاء الحرب الاقتصاديـة؛ ووضع حد للحملات الدعائيـة أو الدبلوماسية المعادية لإسرائيل؛ وحق الملاحة للسفن الإسرائيلية في قناة السويس؛ وعد متابعة مصر التزود بالأسلحة والإمدادات الحربية على نطاق كبير من الاتحاد السوفييتي.

وكما نعلم، فإن مصر مستعدة للنظر في هذه الشروط فقط في حالة حدوث انسحاب إسرائيلي كبير. إلا أن آلـون لم يكن مفوضاً رسمياً لوضـع أي سياسة عملية جديدة. وعوضاً عن ذلك، قام بطرح «مفهوم» مبهـم عـن الانسحـاب إذ تحدث عن تسليم ما بين ثلاثيـن إلى خمسين كيلو متراً مـن الأرض، بينما كان محـدداً وواضحـاً حول الشـؤون الأخرى لدرجة أنه لم يتنـاول أي طرح بخصوص ممري جـدي ومشلاً أو بخصوص حقول نفط أبو رديس.

تبعـت محادثـات آلون مع الرئيس فورد فـي التاسع من كانون الأول الخطـوط الرئيسية التي أصبحت معروفـة. وعندمـا أشار فورد إلى أنه سيدعم عناصر إنهاء حالة الحـرب التي قدمها آلون في سياق خطة انسحـاب فعلـي ملموس، قام آلـون ـ الذي لم تكن لديـه سلطة إعطاء أي قرار ـــ بتحويل مجرى الحديث نحـو طلـب إسرائيل تزويدهم ببرنامج تسليح طويل المدى. فما كان من فورد، الذي كان قد وافق للتو على زيادة كبيرة في المعونة السنوية لإسرائيل، إلا أنه أحجم عن إقرار التزام طويل المدى قائلاً بما يدل على نفاد الصبر: «لا أستطيع أن أؤيد إقرار التزام طويل المدى بإسرائيل، إذا لم نحصل على تأييد لسياستنا الخارجية ككل».

ومـع ذلـك، قمنا بنقل «مفهوم» آلون حـول الانسحاب لمسافة تتراوح بين ثلاثيـن وخمسين كيلو متراً (بما فيها المعابر) إلى القاهرة وكما توقعنا انفجر السادات. وقد نقل السفير هيرمان إيلتس إلينا رد فعل السادات في التقرير التالي:

> إن التنـازلات التـي يطلبها آلون لا يمكن أن تتم من أجـل الانسحاب لمسافة خمسين كيلو متـراً فقط دون أن تقوض مركـزه. فكأنما يطلب منه الإسرائيليـون أن يتنازل عن أرضه وسلطته. وهذا ما لن يتنازل عنه أبداً.

مـن أجـل الخروج من ذلك المـأزق وتقرير مـا إذا كان بالإمكان الحصـول على موقف فعلي من الطرفين، خطرت على بالي فكرة القيام برحلة مكوكية «استكشافية». وواقفت إسرائيـل بحماسـة لأن هذا مـن شأنـه المساهمة في آليـة إبطاء سير عمليـة الاتفاق؛ أمـا السادات فقد قبل هـذه الفكرة بتحفظ طريقة منه لبدء عمليـة المفاوضات مع أنه كان يـرى أنه مـن غير المحتمل التزام الحكومـة الإسرائيليـة بالتفاصيل خلال الرحلة «الاستكشافية».

وقـد ثبـت أن السادات على حق. ففـي أي مكوك فعلي، يعطي وجـود وسيط أمريكي رفيع المستـوى موعـداً نهائيـاً للعملية ويضفـي روح الأهميـة والسرعة بالعمـل. كان ثمة لدى الطرفين باعث للتفكر بالثمن الذي يتطلبه حل ذلك المأزق في ضوء علاقتهما بالولايات المتحـدة. على أي حال، لم يكن هناك في الرحلة المكوكيـة «الاستكشافية» موعد نهائي أو عقوبـة من أي نوع. وما يحرك الطرفيـن كان لجم تنازلاتهما وعدم إعطائها إلا مقابل شـيء حقيقـي. إن المآزق عادة تكون متأصلة في مثل هـذه العمليات ـ ولا بد أن تختبرها معظم الإدارات الناجحة أيضاً.

قـام آلون بزيارة ثانية للرئيس فورد في 16 كانون الثاني، 1974، دون أن تؤدي لأي تحسن فـي الأمور. وقبل اجتماعـه بالرئيس، لخّصت في مذكرة قدمتهـا للرئيس حقيقة الوضع على الشكل التالي:

أعطانـا السادات بعض الأفكار العامة عن التنازلات التي هو على المستعد لتقديمها، بما فيها الأشكال المختلفة لوقف حالة الحرب. إلا أن المشكلة التي نواجهها هي أن السادات لـن يكون أكثر تحديـداً حول التنازلات المصريـة حتى يتبلور لديـه رأي ثابت حول عمق الانسحاب الذي تستعد إسرائيل للقيام به..

وعلى أي حال، فقد ذكرت إسرائيل بشكل خاص وعلني رفضها التوقيع على أي انسحاب حقيقي إلا في حالة إعلان مصر فقط وبالتفصيل عن تنازلات سياسية واسعة النطاق.

تقدم فورد من آلون بمناشدة أخرى، مبنية هذه المرة على حاجة أمريكا الملحة لكسب الوقت للخروج من أزماتها الاقتصادية والسياسية:

أريـد إرسال هنري إلى مصر. ولكن يجب أن يكون في جعبته شيء ملموس يعرضه هناك أكثر مما كنا قد توصلنا إليه في مفاوضاتنا السابقة. أعتقد أننا بحاجة إلى تسوية أخرى مـع نهايـة شباط. كما أننا بحاجة لمزيد من الثبـات والاستقرار من أجل العام والنصف القادم إلى العامين، ومن أجل تحسين الاقتصاد والطاقة ووضعنا في العالم. نحن نحتاج

للوقـت، والتسوية سوف تعطينا إياه. ولكن يجب أن يكون لدى هنري المزيد لعرضه على السادات أكثر من المرة السابقة.

ولكـن، وكما ذكرت لم يكـن آلون مخولاً بالتجاوب مع الرئيس. وأصبح من الضروري الآن إقلاع المكوك الاستكشافي.

المكوك التمهيدي

بدأنا جولة شباط 1975 المكوكية التمهيدية بمشاعر تتراوح بين الأمل والحذر. وقد أخبرت دينيتز في 27 كانون الثاني، أي قبل أسبوعين من رحلتي، بالتالي:

> ليـس في نيتـي الضغط على إسرائيـل للقيام بما هو فـوق طاقتها.. بل كل مـا سأقوم به هـو محاولـة عمل ما، يقوم رابين بعملـه بيديه القويتين ـ ألا وهو إعـادة اكتساب المزيد من السلطة. هل نستطيـع بأسلوب حرفي من أحد أساليب الحكم والإدارة القيام بخطوة نعرف أنها ليست بالشيء الكثير، ولكننا مضطرون للقيام بها في بعض الأوقات؟.

لسوء الحظ كان هناك عدم تناغم بين ما احتجناه لإعادة تشكيل سلطة تنفيذية في الولايات المتحدة وبيـن ما كان الفريقان يعتبرانه ضرورياً لترسيخ التماسك الداخلـي. والاختبار الكبير الذي كان يواجهنا هـو ما إذا كنـا نستطيع الهيمنة على الشرق الأوسط على الصعيد الدبلوماسي، وللتخفيف من الأزمة فيه، ولمنـع أي انـدلاع آخر للعنف الذي يمكن أن يؤدي إلى فقـدان السيطرة على أزمة الطاقة. احتاج السادات لكن يظهر لزملائه أن الاعتدال يعطي فوائد ملموسة بعض الوقت. وبالنسبة للفريق الإسرائيلي المفاوض، اعتمـد التماسك الداخلي على خلاف ذلك بالضبط: فقـد انتزاع تنازلات من مصر وأسلحة من الولايات المتحدة دون تسليم مساحة ذات قيمة من الأرض لإرضاء الطرفين.

في الوقت نفسه، فإن العلاقات الأمريكية مع الاتحاد السوفييتي كانت تتدهور إثر انهيار قانون التجارة، بالإضافـة إلى الانتهاكات المحليـة لاتفاقية فلاديفوستوك. في الواحد والعشريـن من كانون الثاني، كتب فـورد رسالة إلى بريجينيف يعلمه فيها بأمر الرحلة المكوكية التمهيدية. كانت تلك المبادرة وفقاً لمعايير اليـوم بمنزلة مناورة لإبقـاء السوفييت خارج خط المفاوضات الدبلوماسيـة التي تجري مع وعد بالتعاون معهـم فـي المرحلة التالية. شرح فـورد لبريجينيف في رسالته الهدف من ذلـك المكوك على أنه محاولة لتقريـر ما إذا كانت «الخطـوات التمهيدية» ممكنة من «أجل تخفيف حدة التوتـر في المنطقة»، كما دعاه فيها لإبداء رأيه حول «أي عمل مشترك ممكن بيننا... فور انتهاء الإجراءات التي تقوم بها حالياً الولايات المتحدة».

لـم يخطئ بريجينيـف بالتأكيد فـي اعتبار عرض فـورد حول التعـاون المستقبلي المحتمـل غامضاً وخاليـاً مـن المضمون العملي. فأجابـه في السابع والعشريـن من ذلك الشهر بطريقة لاذعـة قائلاً: «إن

الخطـوات العملية المحتملة من الجانـب الأمريكي تتعارض كلياً مع ما اتفقنا عليه». ثم طرح عليه السؤال المنطقـي حول سبب القيـام بالتعاون المشترك «بعد وليس قبل القيام باتخـاذ أي إجراءات». ومع ذلك، وافـق بريجينيـف على عقد اجتماع بينـي وبين غروميكو، على الرغم من أنه قـرر أن الهدف منه هو تلبية مطالـب العرب بالعودة إلى حدود 1967 وتأسيـس كيان فلسطيني. كان ذلك مثالاً آخر على تعنت وصلابة السوفييت، لأنه تحديداً كان من المستحيل البدء بإجراء أي مفاوضات مبنية على تلك الشروط السوفيتية التي أبعدت السوفييت عن مفاوضات عملية السلام في الشرق الأوسط.

انطلقـت في رحلتـي المكوكية التمهيدية تـاركاً واشنطن ورائي في حالة من التوتـر والانقسام. كانت الانتهـاكات التي تواجه أي انفراج في العلاقات الدوليـة تؤدي إلى تعاظم الضغط وإلى تزايد ربط أسباب عـدم الانفراج بسلوكنا في مفاوضات الشـرق الأوسط. كانت التحقيقات الاستخباراتية تسير في مجراها معتمدة على ما يتسرب من معلومات وتلميحات. ودارت معظم نقاط الجدل حول شخصي بالتحديد. لكن فـورد بقـي هادئاً في وجه العاصفة، ثابتاً في تأييده لي. وقد اتصل بـي في اليوم السابق لسفري حيث دار بيننا الحديث التالي:

فـورد: هنري، لقد قررت وانتهى الأمر، وأنا أرغب بالحصول على ملاحظاتك حول الموضوع. سآتي إلى المطار غداً مساءً. وأنا أظن أننا قد قمنا أنا وأنت ونيكسون بعمل من الطراز الأول... لذا سآتي إلى المطار غداً لأودعك.

كيسنجر: دعني أفكر بالأمر هذه الليلة لأرى ما إذا كان يبدو وكأنني أنا الذي طلبت منك أن تدعمني. أنا لا أشك أبداً بعلاقتنا وبحقيقة شعورك تجاهي، وأنا لا أطلب أفضل من هذا الدعم..

فـورد: أنـت على حق يا هنري، عليك أن تكون قوياً جداً هناك، وأنا معك وإلى درجة كبيرة على ذات الخط.

كيسينجـر: إن تأييـدك لـي ومتعة عملنا معـاً يشعراني برضاً كبيـرٍ، وما أقوله لا علاقـة له بطبيعة علاقتنا.

فورد: أنا أتفق معك في هذا، وإذا ما حدث بيننا أي اختلاف في الرأي، يمكنك أن تقول لي رأيك مباشرة كما يمكنني أن أقول لك رأيي.

بـدأ المكـوك التمهيدي فـي إسرائيل مساء يوم الاثنيـن العاشر من شباط. وكمـا خشيت، فإن عبارة «تمهيدي» شجعت فريق المفاوضين الإسرائيليين على الاكتفاء بمناقشة الشؤون الاستراتيجية العامة التي لـم يكـن بيننا خلاف كبير في الـرأي حولها. وكما حدث من قبل، رحب المفاوضـون الإسرائيليون بمسار الخطـوة بخطـوة وتوقفوا عند بعض الشروط المحددة. في اليـوم التالي، وبعد جلسـة خاصة مع رابين،

تـرك لدي انطباعاً بوجود اتفاق حـول النتيجة النهائية، وكان اهتمامه الرئيسـي التأكد من حصوله على مساعدات اقتصادية بشكل خاص على كلفة نقل مهبط للطائرات موجود خلف المعابر مباشرة. افترضت مـن كل ذلـك ـــ الأمر الذي ثبت لي فيمـا بعد أنه غير صحيح ـــ أنهم موافقون على المبـدأ، وأن المطلب الرئيسي لجولتي هذه هو الاتفاق على الثمن.

إلا أنه أصبح من الواضح، بعد اجتماعي بأعضاء الفريق المفاوض كلهم، أن رابين لم ينجح في إقناع زملائـه. كمـا أن غياب حالة التوتر والاهتياج، التي سادت أثناء مناقشات الانسحاب الفعلي السرية خلال مفاوضـات فك الارتبـاط، أدت، وللمفارقة، إلى تزايد مشاعر الإحباط. وبـدلاً من التركيز على الموضوع الأساسـي الذي أتيت إلى الشرق الأوسط للتفاوض بشأنه: الشروط المحددة لاتفاقية الفصل في سيناء، فإن الفريق الإسرائيلي كان يركز في نقاشه على البعد الفلسفي للحسنات النسبية لمسار الخطوة بخطوة بدلاً من المسار الكلي.

بذلـت قصـارى جهدي لنقل حقيقة وضعنـا الداخلي: مع ذلك الحذر والتحفظ فـي إدارة الأزمة التي تشكلـت بسبـب ووترغيـت؛ فإنه كان هناك فرق بين عقـد مؤتمر جينيف بعد نجـاح الولايات المتحدة في إدارة مفاوضـات الشرق الأوسط، وبين جرّنا إلى المؤتمر نتيجةً للوضع المحرج الذي قد يترتب على فشل المفاوضات، وتحت رحمة تحالف متوقع سوفييتي ـ عربي ـ أوروبي ـ خاص بشؤون الشرق الأوسط؛ إضافة إلى كون مسار الخطوة بخطوة قد يؤدي إلى إقدام بعض الدول العربية على القيام باتفاقيات سلام بشكل منفصل عن باقي الدول.

> فـي أمريكا، كان الوضع على الصورة التالية: نتيجـة لحوادث الاغتيال وفيتنام ووترغيت فـإن السلطـة التنفيذيـة كانت في وضـع لا تحسد عليه؛ أثّـر بدوره في نـواح عدة، ولكن بالدرجة الأولى في انهيار النظام داخل القسم التنفيذي..
>
> يتذكر رئيس الوزراء إدارتنا للأزمة عام 1970، وربما يتذكر بعضكم 1973 أيضاً. أن ذلك النوع من الإجراءات والتصرفات التي اتخذت حينذاك أصبح غير وارد على الإطلاق (اليوم)...
>
> حالمـا تبـدأ المفاوضات (فـي جينيف) ستكون في وضـع دفاعي تمامـاً. وستؤيد أوروبا واليابان بالتأكيد الاتحاد السوفيتي العرب تأييداً كاملاً.
>
> لهذا السبب، فإن مسار الخطوة خطوة سيجعل، أولاً، الرأي العام العالمي يعتاد على فكرة أن المشكلـة معقدة للغاية، وثانياً سيشكل قناعة لـدى الجميع بأن الحل معقد أيضاً. كما أنـه سيساهم في خلق جـو معين من شأنه دفع الدول (العربيـة) الأخرى للسعي لتحقيق الاستقـرار، بهـدف التخلص من هذا الوضع، بـدلاً من الاستمرار فيه علـى هذا الشكل تماماً بعد عام.

لـم يعارض الوفد الإسرائيلي المفاوض هـذا التحليل، ولكن مضمونـه دل على أن الوفد لـم ير سببـاً موجباً للتنازل عن الأرض. وقد ختم رابين ذلك الحـوار المجرد والنظري بمداخلة مفيدة:

إن فكـرة اهتمامنـا بمسـار الخطوة خطوة ليـس بسبب خوفنا من جينيـف، ولكن بسبب حسنات هذه السياسة، إذ يمكن أن تحقق هذه السياسة للولايات المتحدة وإسرائيل بعض الفائـدة فـي حال وجود عودة، وفي حـال حصولنا على تأكيدات بعـدم جرنا إلى جينيف بطريقة لا نرضاها.

لقد أفاد تقديم تصريح مجرد ونظري عن الاستعداد لإجراء اتفاقية مع مصر في حدوث بعض التقدم في القدس، ولكن مجازفة السادات بانفصاله عن أشقائه العرب كان أمراً شاقاً بالنسبة له. لذلك لم أستغربْ حالـة التوتـر والكآبة التي كان عليها وتراجعه عندما قمت بزيارته في 12 و13 شباط في القاهرة. إذ لم يكن السـادات مرتاحاً للمكوك التمهيدي لشكه بأن إسرائيـل سوف تخفي أوراقها الرابحة وستناور للتظاهر أنها في وضع محرج. وأضاف أن تقريري قد رفع من نبرة السؤال حول ما إذا كانت الحكومة الإسرائيلية منقسمة الرأي أم أضعف كثيراً من أن تقوم بعقد اتفاقية كبيرة، بغض النظر عما ستقدمه أو تتنازل عنه.

وكمـا كان يفعـل منذ أشهر فـإن السادات حذر من أن أي تعهد رسمي بوقـف حالة الحرب من طرفه، والأراضـي المصرية مازالت في أيدي الإسرائيليين، سيعد خيانة من قبل العالم العربي بأكمله. ومع ذلك فإنـه، وبرغم رفضه لإعطاء تعهد رسمي بإعـلان وقف حالة الحرب، وافق على تضمين عدد من الفقرات التي تحقق وقف حالة الحرب في اتفاقية الفصل. إلا أنه رفض تحديد هذه الفقرات خشية تسربها وبالتالي استغلالها من قبل الإسرائيليين على أنها نقطة بداية لطلب المزيد من المطالب.

لمـا كان كل طـرف من الفريقين ينتظر مبادرة الطرف الآخر باتخـاذ الخطوة الأولى، أو أن يستخدم الولايـات المتحـدة لانتزاع تنازلات من الطـرف الآخر، فقد قـام رابين بالمبادرة الأولـى خلال محطتي الثانيـة فـي إسرائيل في يومي 13و 14 شباط. وفي لقاء صحفي مع الفريق الصحفي المسافر معي يوم 14 شبـاط، عبر عن استعداده لتسليم الممرات وحقل النفط مقابل تعويض مناسب، حُدد بإقرار مصر بعدم مشاركتهـا في أي حـرب مستقبلية ممكنة ضد إسرائيل، سواء لاستعـادة أراضيها أم لدعم الدول العربية الأخرى في استعادة أراضيها. هذه هي المرة الأولى التي يصل فيها زعيم إسرائيلي في تصريحاته بشكل علني إلى هذا الحد. ولكن جولة رابين هذه سطرت ما كنا نعارضه نحن.

فالبرغـم مـن أن السادات كان متجهاً نحو ذلـك الاتجاه تحديداً، إلا أن قدرتـه على الاستمرار كانت تعتمد على المعنى الضمني الخفي لعبارة وقف حالة الحرب التي قام رابين بتفسيرها الآن كاشفاً الالتباس الذي كان يكتنفها.

علـى أي حال، حالما وافق رابين بشكل علني على أهداف جهودنا الدبلوماسية، تفاءلت تماماً بحدوث الاتفـاق، فالسادات سيتمثل للمطالب الإسرائيلية بوقـف حالة الحرب، ورابين ربما لم يقل كلمته النهائية بعد. وعلى هذا الأساس، اتفقت مع رابين على أن جولة المفاوضات الرسمية المكوكية يجب أن تبدأ خلال ثلاثة أسابيع.

أعادتني غولدا مائير إلى أرض الواقع. فقبل مغادرتي إسرائيل، وفي الواقع وأنا في طريقي إلى المطار يوم 14 شباط، اتصلت بها في بيتها المتواضع في بإحدى ضواحي تل أبيب. وقد اكتشفت أنها لم تكن أقل فظاظـة وتعنتـاً مما كانت عليه قبل تقاعدهـا، إذ قالت لي: «إن الأمر لن ينجـح، فالحكومة لن توافق على هذا أبداً». في الحقيقة، لم يشر أي وزير إسرائيلي من قبل إلى هذا الأمر بمثل هذه الطريقة. بل لقد ترك رابيـن لدي عكس ذلك الانطابع تماماً. وقد أخبـرت وزير الدولة جوزيف سيسكو لاحقاً ونحن في الطائرة بما قالته لي غولدا مائير فقال معلقاً: «من المدهش كيف أن الناس يصبحون بسرعة خارج دائرة الأحداث عند مغادرتهم لمناصبهم».

ولكـن للأسـف، لم تكن غولـدا مائير، بل أنا مـن كان خارج دائـرة الأحداث، على الأقـل فيما يتعلق بالحقائـق الإسرائيليـة. لم أتخيل أنه من الممكن أن تدعني الحكومـة الإسرائيلية أباشر جولتي المكوكية إلا إذا كانـت مستعـدة للتفاوض ضمن الإطـار العام الـذي شرحناه، أنا وفـورد، مراراً وتكـراراً لرابين (قرابة أربع وعشرين مرة). وقد اعتقدنا أن إسرائيل لديها الكثير لتراهن به مع مصر المعتدلة لإجهاض المفاوضـات، ولاسيمـا بعد تعثر الخيار الأردني. إلا أن مالم يكن فـي حسباني هو أن إسرائيل قد تنجرف إلى طريق مسدود نتيجة الصراع داخل حكومتها أكثر من أي حسابات أخرى.

وكـي أبدد الاعتراضات حول إقامة اتفاقية منفصلة، توقفـت في دمشق والعقبة والرياض قبل عودتي إلى واشنطن. كانت تلك الخطوة لإظهار الهيمنة الأمريكية على دبلوماسية الشرق الأوسط، إلا أن الرئيس السوري حافظ الأسد، على الرغم من حماسه لمعارضة أي اتفاق منفصل عن الصف العربي، كان مهتماً بالمشاركـة في عملية السلام. وقـد أشار إلى استعداده للقيام بخطوة جزئيـة أخرى بخصوص مرتفعات الجولان تتناسب مع صغر مساحة الأرض المذكورة.

والأهم من هذا أنه أشار إلى إمكانية قبوله إجراء مفاوضات رسمية لإعلان وقف حالة الحرب إذا انسحبت إسرائيل من مرتفعات الجولان كافة. ومع أنني كنت متأكداً من رفض رابين للاقتراحين، إلا أنهما كان مؤشرين على التغيير الكبير في موقف الرئيس الأسد الذي كان عليه عند لقائي السابق به قبل عام ونصف العام.

أمـا في العقبة، فإن التأرجح في موقف الملك حسين، الذي فرضته عليه الظروف المحيطة الخارجة عـن سيطرتـه، جعله يستاء من كون السادات سوف يقيد من جراء خذلانه في الرباط. إلا أنه فضّل تأجيل الأمر إلى مؤتمر جينيف حيث كان سيبرز موضوع عزله بشكل واضح.

وفي الرياض، التقيت بالملك فيصل، أحذق الدبلوماسيينو الذي كان يعتمد على زخارف النظام الاقطاعي ليبحر ببلاده إلى شط الأمان عبر الأجواء التي تعصف بالمنطقة. لطالما احترمت الملك فيصل وحملت مشاعر التقدير الكبير تجاهه. قد يكون سلوكه غريباً وبعيداً عن سلوك الآخرين، إلا أنه كان جديراً بالثقة. وبقدر هدوئه وحكمتـه التـي كان يبرزها، إلا أنه استخدم ما يملكه من تفرد لتحسيـن وموازنة وصياغة قوى الحداثة الغريبة. إن الشعـور بـأن ثـروة السعودية ستخلـق مغناطيساً لدول الجوار الأقـل مالاً وثراءً، جعلت فيصـل يناور لتوحيد ودعم الآمال والطموحات العربية، مع الانتباه للحقائق الجغرافية التي عرفها على مدى عدة سنين، عندما كان يشغل منصب وزير خارجية بلاده. ونظراً لأنه أدرك مسحة الرومانسية العربية التي كانت غالباً ما تقودهم إلى المبالغـة، فقـد استطاع أن يدرك أيضـاً أن معارضة تلك النزعات قد يشوش التوازنـات الحساسة لمملكته. في الوقـت نفسه، على الرغم من صداقته الحقيقية والصادقة مع الولايات المتحدة، فإن الملك فيصل كان مقتنعاً بأن البراغماتية الأمريكية الزائدة قد واجهت المملكة بعدة خيارات خارجة عن نطاق قدراتها العاطفية. لذلك أخذ يناور بين أسلوب العرب ذي الطابع الطنان والمبالغ فيه وبين أسلوب واشنطن العملي.

وعلى الرغم من أنه لم يستطع أن يقر بسياستنا بشكل علني، إلا أنه لم يعدم سبيلاً لتأييدها كلما كان بإمكانه فعل هذا.

عكس لقائي الأول بفيصل هذه الأساليب. إذا أمضى الملك ساعات وهو يتحدث وبأسلوب بليغ عن وضع العـرب المتحدين شكلياً، وكنت أستغل أثناءها فتـرات سكوته القصيرة لشرح الاحتمالات الممكنة الأكثر واقعية. وبعد أن انتهى مدون وقائع الاجتماع من كتابته، رافقني الملك إلى الباب وقال لي بالإنكليزية: «إننا ندعو اللّه العليّ القدير أن يوفقكم في مساعيكم النبيلة. وإنني أتحدث بصراحة معك لأني أحترم قدرتك وحكمتك التي أثبتتها الأيام».

بالرغـم من أن فيصل لـم يكن ليغامر بكشف تأييـده العلني لسياساتنا، إلا أنـه كان مستعداً لتسهيل تنفيذها من خلال الدبلوماسية السعودية الحادقة ومن خلال إغراء المال الذي يغني عن الكلام. وحالما توضحـت لي الصـورة بهذا الشكل، بـدأت أتعود على فهم فيصـل وعلى تحديد مشكلاتنـا من دون طلب المساعـدة الرسميـة من السعوديـة. وغالباً ماكنا نكتشف لاحقـاً وجود أثر للسعودية فـي مساعدة إنجاز المفاوضات وإزالة العوائق التي تعترض سياستنا.

فـي هذه الزيارة، حذرني فيصل من نتائج إجراء اتفاقيـة منفصلة، بينما حثني في الوقت نفسه على اتبـاع المحاكمـة العقلية وأفضل مـا أراه من أجل السير قدماً في عملية السـلام. وبعبارة أخرى، حدد لي الأهداف السياسية الصحيحة من خلال دعمه للسياسة الدبلوماسية العملية الوحيدة.

لقـد بلغت أخيراً الجهود التي تعود للأيام الأولى لإدارة فورد ذروتها في هذه الجولة المكوكية. وكل ما كان ينقصنا الآن هو تعاون الأطراف المعنية.

المكوك الذي فشل

عندمـا توجهت إلى مصر فـي 7 آذار 1975، وفيما كان يتوقع أن يكون مكوكاً الهدف منه تهيئة المناخ الملائـم لعملية السلام. كانت مشكلات الفيتنام تسيـر بالسياسة الخارجية إلى الدرك الأسفل كما كانت الهنـد الصينية تسقـط، وكان انحسار الاقتصاد العالمي الذي فجرته أزمـة الطاقة آخذاً بالاحتدام أكثر فأكثر.

لكـن أطراف الشرق الأوسط كانت مدفوعة باهتمامات مختلفة كلياً. فقد فَهِمَ رابين احتياجاتنا كونه خدم بصفته سفيراً في واشنطن، بل ربما أفضل مما فهم مشاعر شعبه، الذي قاوم مفهوم مقايضة الأرض مقابـل الضمانـات. أما السادات، سالذي فكان أقل تقيداً بالرأي العـام المصري، كان عليه أن يناور ضد خلفية رهن نفسه للوحدة العربية في الرباط قبل أقل من خمسة أشهر مضت.

كل هـذا تسبـب في أن تتم الجولة المكوكية في جوفائق مـن التوتر. إذ كان علينا أن نقنع المفاوضين الإسرائيليين بأننا شركاء يعتمـد عليهم، على الرغم من الجهود الأمريكيـة الفاشلة في الهند الصينية. واحتجنـا كذلك لأن نقنع السـادات بأن رهانه علينا بقي ذا قيمة حتى مع تعرّضـ عدد من أوجه السياسة الأمريكية الخارجية للهجوم من الداخل.

للجـولات المكوكيـة طريقة في أن تبيـن للفريق الأمريكي الهـوة الكبيرة بين الأساليـب المحلية ومفاهيم القادة المصريين والإسرائيليين، مما كان يضطرنا لتغير اتجاه الحركة أحياناً لثلاث مرات في اليوم الواحد. فعنـد الوصول إلـى إسرائيل، سـوف ننتقل مباشـرة بالسيارة أو المروحيـة إلى غرفة المؤتمـرات الملاصقة لمكتـب رئيس الوزراء؛ لن يبدد مضيفونـا أبداً الوقت الثمين على أمور غير أساسية كالمحادثات الشخصية أو المـآدب الاجتماعية. وعنـد الوصول إلى مصر، سوف نحاط، بناء على إصـرار السادات، بفترات إلزامية من الاسترخاء ـ بناء على مكان الإقامة، أو على الشاطئ أو في حديقة السادات في الإسكندرية، أو بيت الاستراحة الرئاسي قرب الأهرامات في القاهرة، أو في معتزل صحراوي قرب أسوان. وقد تراوحت اللقاءات في القدس بشـكل ثابـت بين مقر إقامة رئيس الوزراء، وهو أشبه ما يكـون بمقر إداري لشركة متوسطة في ضواحي إحدى المـدن الأمريكيـة، وغرفة اجتماعـات متواضعة لرئيس الـوزراء. كانت هناك بعض الملاحظـات اللطيفة؛ إذ يدخـل محاورونا مباشرة في الموضوع ولا يشردون بعيداً عنه. حتـى المزاح كان متعلقاً مباشرة بالموضوعات المتداولة. وعندما يتعلق الأمر بتعديلات في المناطق، كان القادة الإسرائيليون يبتعدون عن العبث.

ومن أجل البقاء على الوتيرة نفسها، كان الفريق الإسرائيلي المفاوض يكره مقاطعة المفاوضات حتى من أجل الطعام، الذي كان في معظمه يتألف من شطائر نتناولها ونحن نتابع المحادثات.

لـم يكـن يبدو أن الولايـات المتحدة التي زودت إسرائيل بـكل أسلحتها تقريباً، وكـون دعمها لا يمكن الاستغنـاء عنه مطلقـاً لنجـاح الدبلوماسية الإسرائيليـة، على قدر من الأهميـة. وقد أَعْلَـمَ المفاوضون

الأمريكيـون، الذيـن كانوا يعاملون بحذر فائق، بأن أي اتفاق سوف يتطلـب جهداً خارقاً. كان المفاوضون الإسرائيليـون، المشبعـون بتقاليد التلمود، يُقلِّبون كل وثيقة بحنكة وذهن حـاد، سعيدين باكتشاف ظلال معانٍ مبهمة ربما يكون قد فاتنا إدراكها. بدا أن خوفهم الأكبر، الذي يثير عادة توازننا العاطفي، هو أنهم سـوف يتهمون من قبل جمهورهـم المتطلب والحاد بأنهم خدعوا من قبـل حلفائهم الأمريكيين. ولم يكن فـي نيتهم إنهـاء الأمر إلى أن يخلو أنفسهم من أقل احتمال بتوجيه اللوم لهم متسببين بإصابة محاوريهم الأمريكيين بالإرهاق النفسي والجسدي.

كان هنـاك أمـر بطولي ومفجع معاً في مثل هذا التصلب الكبير: بطولي لأن الاستغراق الذاتي الذي لا يخمـد؛ فقـط بل يمكنه أن يحول الاتكال التام إلى إصرار جـريء؛ ومفجع لأن الجرأة بالكاد غلفت الرعب الخفي من خشية أن يكون على هذا الجيل من اليهود، من خلاله أخطائه أو ـ على الأرجح ـ من خلال حماقة وقصـر نظر الحلفاء، متابعة مسلسل الكوارث التي أصابت التاريخ اليهودي بلعنتها. لم يتجرأ المفاوضون الإسرائيليـون بالإقـرار بأكثر ما كانوا يخشونه: أن الولايات المتحدة قـد سحرها وجود قائد عربي جديد معتدل له كاريزما قيادية خاصة، وأن إسرائيل، من خلال العملية، ستصبح مخلباً في استراتيجية الحرب الباردة الأمريكية وستخسر مرساها العاطفي التقليدي في الولايات المتحدة.

علـى العكس، بدا أن القـادة المصريين قد تشربوا على الأقل بعض إيقـاع الأبدية الضمني من خلال التاريـخ الطويـل لبلدهم. ربما خسرت مصـر كل حروبها مع إسرائيل، لكنها كانـت بشكل غريزي مدركة أن بقاءهـا لم يكن مهدداً قط. فقـد كانت الأراضي المصرية أوسع بكثير مـن أن تغزوها إسرائيل، ويبلغ تعـداد سـكان القاهرة وحدها ما يقارب ضعفي عدد سكان كل إسرائيل. فكل ما تحتاجه مصر كان نصراً واحـداً، فيمـا كانت إسرائيل تُعرّض وجودهـا ذاته للخطر بهزيمة واحدة. يمكن لمصـر أن تعطي هامشاً مـن الكرم؛ بينما إسرائيل، المتمسكة بحافة البقاء، كانـت ملزمة أن تنظر إلى أي نداء للكرم من جانبها كدعوة لكارثة.

كان قـادة مصـر ـ ولاسيما والسادات ـ أقل انهماكاً بالتلاعب بالألفاظ وبالثغرات القانونية كما كانوا راغبيـن أكثر في المقامرة على العلاقـات الشخصية والتطور التاريخي غير الملموس بالنسبة لهم، كانت الدبلوماسيـة تعني توازن الالتزامات العاطفية. كانـت النزعة الرومانسية نقطة ضعف العرب الكبرى. لم يكـن من السهل دائماً معرفـة إن كان المحاور يلقي شعراً ملحمياً أم تقويماً واقعياً للموقف المدروس؛ مما قادهـم إلـى سفر البحث عن دقـة بالغة كانت تفقد أحيانـاً اتصالها بالواقع. كان مطلـب العرب الكرامة والشرف، ومطلب الإسرائيليين الأمن والبقاء.

وفيمـا ركز المفاوضون على بحـث الأحداث الجارية المختلفة، برهنت الفـرق التقنية المساندة على أن مهمتهـا تقصـم الظهر باستمرار. كنا نقوم أحياناً بجولات مكوكية مرتين في يوم واحد. وقد عمل معي

فـي خدمة تلك الجولة نائب وزير الخارجية جوزيف سيسكو، الذي كان مسؤولاً عن المساندة؛ ونائب وزير الدولـة ألفـرد «روي» أثرتون؛ وهارولد «هـال» سوندرز، الذي كان يتناوب بين العمـل بوصفه نائباً لأثرتون وبيـن العمل بوصفه مسؤولاً عن فريق عمل شؤون الشرق الأوسط في مجلس الأمن القومي؛ وبيتر رودمان، مساعدي الشخصي الذي لا يستغنى عنه، والذي كان مسؤولاً عن الوثائق وعن غيرها من الأمور.

اليوم الاعتيادي لفريق المساندة كان يبدأ في فندق الملك داوُد في القدس، حيث يجمع لوائح التدقيق والنصوص والخرائط المحتمل طلبها ذلك اليوم. كان الفريـق الأمريكي عموماً يقابل نظيره الإسرائيلي لمواجهة اللحظة الأخيرة قبل أن ينطلق بالسيارات أو يطير بالمروحية إلى طائرة القوات الجوية للولايات المتحدة المجهزة خصيصاً لتلك الجولة والقابعة في مطار بن غوريون. وكانت تستغل الجولة إلى المطار والرحلـة الجوية إما إلى الحقل الجـوي العسكري في دلتا النيل وإما إلى قـرب أسوان، للمراجعة، وإعادة الطبـع، ونسـخ النصوص. وبعـد الانتقال بالمروحية إلى موقـع تواجد الرئيس السـادات، وقضاء ساعات عديـدة معـه ومع فريقه حتى وقت متأخـر بعد الظهر للحصول عن إجابات عـن الاقتراحات الإسرائيلية، وكذلـك عـن اقتراحات مصريـة جديدة، يعود الفريـق إلى القدس لاجتمـاع آخر مع الفريـق الإسرائيلي المفاوض حتى ساعات الصباح الأولى، تتبعها مراجعة أخرى للوائح التدقيق والنصوص والخرائط.

كان مكتبنا الطائر طائرة البوينغ 707 التي خدمت، في أفضل أيامها، بوصفها طائرة رئاسية للرئيس جونسون؛ في أوائل السبعينيات، ثم أحيلت لتكون على وضعية طائرة رئاسية مساعدة. وكانت مقسمة إلى ثلاث حجيرات. قسم المقدمة ـ «القيادة» لي ولاثنين أو ثلاثة من طاقم مساعدي الشخصيين ـ كان مؤثثاً بكنبـة، وطاولـة اجتماع على شكل قطع ناقص، وكرسي ضخم مريح صمم لأجل ـ وربما من قِبَل ـ الرئيس جونسـون. كان ما يميز الطاولة والكرسي المريح أنه يمكن رفعهما وخفضهما بأزرار منفصلة. وقد تسبب نقص الخبرة لدي ذات مرة بحشر قدمـي بين الكرسي المريح الصاعد والطاولـة الهابطة، فقام أفراد الطاقم المرافق الأكثر فهماً بالشؤون الميكانيكية بمساعدتي لتحريرها.

وخلـف ذاك القسم كانت ثمة مقصورة فيها ثمانية مقاعـد موزعة على أربع صفوف، مع بعض الآلات الطابعـة وآلـة ناسخة كزيروكـس، وكان يشغلها جو سيسكـو ومعاونوه. والمقصورة الثالثـة ضمت مقاعد مصفوفة ثلاثاً تتسع ربما لأربع وعشرين شخصاً، حوت الطاقم الإداري والفريق الصحفي المرافق.

كلمـا غادرنـا أحد طرفـي المكوك، كان الفريـق المساعد يعد تحليلاتـه بتوتر بالـغ للقضايا البارزة وحالتهـا، ويغربل العموميـات الأساسية إلى لغة تفاوض. ونظراً لأن الرحلـة تستغرق فقط ساعة للطيران مـن القاهـرة إلى تل أبيب، كان إنجاز هذا الكم من العمل في وقتـه يتطلب جهداً كبيراً يدل على البراعة؛ وعادة ما كان يربك قدرات سيسكو الجبارة التي لا يمكن تجاهلها. في إحدى المناسبات عندما انفلتت آلة النسـخ من مكانها، سمعت عضواً فـي الفريق المساعد يصرخ: «أعدها قبل أن يقع سيسكو فيها فتنسخه،

لأن اثنيـن على شاكلة سيسكو سـوف يقودانا حتماً إلى الجنون». كلما كان السادات ينقل مسرح الأحداث المصـري إلى أسوان، كان يكسب امتنان الفريق المساعد الدائم لتوفير ساعة طيران إضافية لهم ينهون خلالها ما لديهم من أعمال.

فـي هذه المـرة، اقترح السادات أن يبدأ المكوك في مصر، ولكونـه مقتنعاً أن العقبة الكبرى في وجه تقـدم عملية السـلام كانت نفسية، كان عملياً يعرض أن يقوم بالحركة الأولى كـي يسهل مهمة رابين مع وزارته. وبحسه الدرامي المعتاد، استقبلني السادات في أسوان صباح السبت 8 من آذار، في الغرفة نفسها التـي أعلن فيها قـراره، قبل أربعة عشر شهراً، بأنه لن يلبس الـزي الرسمي مرة أخرى إلا في الاحتفالات الرسمية.

محاطـاً بوزيـر الخارجيـة إسماعيل فهمـي ووزير الدفـاع الفريق محمـد عبد الغنـي الجمصي، بدأ السـادات حديثـه بنبرة دافئـة ورسمية في الوقت نفسه قائـلاً: «إنك صديق عزيز. آمـل أن تكون زيارتك مثمـرة وحاسمة». بعدها صرف مستشاريه، وعندما أصبحنـا وحدنا، بدأ بتوضيح تلميحاته السابقة فيما يتعلـق بالمطلـب الإسرائيلي لإنهـاء حالة الحرب. وأوضح أنـه لن يكون باستطاعتـه الموافقة على إعلان تصريـح رسمـي ـ إنهـاء حالة الحرب طالما بقيـت القـوات الإسرائيلية على الأرض المصرية. على كل حـال كان مستعداً لقبول معظـم العناصر المتضمنة، وقد دعاني لأن أوجز لـه ما يمكن أن تتضمنه لائحة المطالب الإسرائيلية.

قلـت للسادات: إنه بتقديري أن الطلب الإسرائيلي لإعلان إنهاء حالة الحرب بشكل رسمي يعكس أربع عناصـر رئيسيـة: فترة راحة مطولة مـن الحرب ومن التهديد بالحـرب، وتقديم تأكيـدات بأن مصر لن تشارك سورية في حرب أخرى؛ وإنشاء منطقة مجردة عسكرياً على طول خط الحدود الجديدة لعدد معين مـن السنوات لا يخضـع لفيتو مجلس الأمن الدولي أو لطلب مصري لإزالتـه، كما كانت حالة اتفاقات فك الارتباط؛ والتخفيف من المقاطعة والحصار العربي على المنتجات الإسرائيلية. وعلى هذا وعد السادات بإعطاء جوابه في اليوم التالي.

وعندمـا استأنفنا العمل في صبـاح اليوم التالي، شرح لنا السادات موقفـه الداخلي. قال: إن الجيش المصـري متململ وضجر، وقال: إنه حتى الآن مازال قادراً علـى تهدئة جنوده بحجة أن استراتيجيته هي استعادة الأراضي المصرية. لكن إن وقعت المفاوضات الدبلوماسية في مأزق، فسيذّكره الجيش بالتأكيد بـأن مجرد اللجوء إلى الدبلوماسية قـد جعل الاتحاد السوفييتي يوقف شحناته العسكرية علاوة على عزل مصر عن العالم العربي.

على أي حال، من أجل إنجاز اختراق سريع، كان السادات مستعداً لأنْ يعرض الفقرات التالية من أجل حالة اللا حرب: التزام رسمي بحل كل النزاعات المستقبلية بوسائل سلمية؛ تعهد بتجنب اللجوء إلى القوة

حتى لو أعادت سورية إشعال فتيل الحرب؛ قيود كبيرة على القوات المصرية على الجانب الشرقي من قناة السويس؛ منطقة عازلة عريضة بين القوات المصرية والإسرائيلية؛ بالإضافة إلى تخفيف المقاطعة العربية على الشركات الأمريكية. وعرض أن يقوم فهمي وسيسكو بوضع القواعد الدقيقة اللازمة. بالمقابل، توقع السادات انسحاباً مهماً، وعلى الأقل إخلاء ممرات الجدي والمثلا وحقول أبي رديس النفطية.

كان اقتراح السادات خطوة كبيرة نحو الأمام، مع أن أسلوبه بقي غامضاً، في تلك المرحلة المكوكية المبكرة، كنت ماأزال واثقاً من النجاح.

بهذا المزاج، عرجت على دمشق يوم الأحد 9 آذار، لأُلخّص للأسد بأن اتفاقاً إسرائيلياً مصرياً منفصلاً كان بلا جدال على وشك أن يرى النور. كان ذلك، كم قلت لسيسكو وأنا نصف مازح، تمريناً جيداً لمواجهة ما كان بانتظارنا في القدس.

وفي الحقيقة، كان أسلوب الإسرائيليين والسوريين، الذين يعتبرون أنفسهم خصمين عنيدين، في التفاوض متشابهاً حقاً. وعند تلك النقطة، لم يصدق أي منهما أن سلاماً دائماً كان ممكناً حقاً. وقد فاوض كل منهما الآخر بسبب الحاجة: إسرائيل كي تعطي الشرعية لاتفاقياتها مع مصر بعيون العرب، وسورية لتقي نفسها من العزلة. لقد كان الطرفان قادرين على القيام بإجراءات عملية، وها هي مرتفعات الجولان المحررة عام 1974 لم تشهد حتى كتابة هذه السطور أي حوادث انتهاك أو اعتداء من قبل الطرفين على مدى خمس وعشرين عاماً. لكنهما لم يتظاهرا قط أنهما كانا يعملان باتجاه تغيير نوعي يمنح الهدنة بينهما أساساً معنوياً ـ كما سعى السادات لعمله وكما تعلم القادة الإسرائيليون اللاحقون أن يفعلوا، دون اقتناع في البداية. لكنه تغير بمرور الزمن.

نظر الحكام في القاهرة إلى أنفسهم باعتبارهم ورثة حضارة قديمة. وقد شاركوا في السياسة العربية باختيارهم لا بسبب الشعور بالالتزام، لأن مصر لم تعتبر نفسها بلداً عربياً صرفاً وكانت تتطلع كذلك نحو إفريقية وشواطئ المتوسط الشمالية.

من ناحية ثانية، كان مرد شعور سورية بالالتزام ـ سبب وجودها ذاته ـ إلى القومية العربية. كانت حدودها تكاد تكون اعتباطية كما الحدود الإسرائيلية، نتيجة تقسيم غنائم الشرق الأوسط بين بريطانيا وفرنسا في نهاية الحرب العالمية الأولى. وتماماً كما سعى الكثير في إسرائيل لتحقيق التوسع الإسرائيلي على أرض فلسطين التوراتية، رأى الكثير من السوريين أنفسهم على أنهم الوصي المباشر على الأمة العربية التي ضمت، في أحلامهم، لبنان والأردن وفلسطين، وفي بعض الأحيان المفعمة بالحماسة الزائدة، العراق والمملكة العربية السعودية. هكذا يشعر القادة السوريون بالمسؤولية ليس فقط على الكينونة التي تتمثل اليوم في سورية ولكن على القضية العربية كما فسروها. وقد شرح الأسد هذا الموقف خلال توقفي الثاني في دمشق في هذه الجولة المكوكية:

لا يمكننـا الانتظـار ولا يمكننـا التوقف بلا حراك. تتهمنـا إسرائيـل الآن بأننا توسعيون لمجـرد أننـا نريد استعـادة الجولان! نحن مهتمـون بكل الأمور الأخرى فقـط لأننا ندعو للوحدة العربية. بالنسبة لنا الوحدة العربية مقدسة. لقد كانت سورية عبر التاريخ موطناً لـكل النـاس من حولنا، لذا يجب ألا يتفاجأ الوزير من تطلعنـا سورية بكثير من الاهتمام للوحدة مع جيراننا.

كان هـذا هو سبب عرضـ الأسد، خلال الجولة المكوكية التمهيديـة، إنهاء حالة الحرب فقط في حال إعادة مرتفعات الجولان. أما اتفاق السلام فعليه أن ينتظر التسوية الشاملة مع كل العرب، ولاسيما الفلسطينيين.

عكـس الأسد الصراع والقـوى التي تشد الحبل داخل النظـام السياسي السوري. إذ كان ينتمـي إلى الطائفة العلوية، وهي أقلية أصبحـت مسلمة بالكامل فقط في القرن السابق. لذلـك كانت متطلبات البقاء السياسية وحتى الإثنيـة مترسخة فيه بعمق. ومع أنه استمر أكثـر مـن نظرائـه الإسرائيليين فقد استطـاع البقاء محلياً باتباعه النشـاط المتوازن نفسـه بين الزمر المتنوعة. على عكس القادة السياسيين الإسرائيليين، كان لا يتردد في استدعاء القوات المسلحة للمحافظة على حكمه، ولذلك فإنه قد مضى بعيداً لفعل كل ما يضمن وحدة الجيش.

عندما تفاوضت معه، اتبع الأسد إجراءً من ثلاث مراحل مما عكس أساس قوته وسلطته. أولاً كان يقابلنـي مع مترجمي وحدنا، الأمر الذي كان يمكنه من التحكم فيما سينقل إلى مساعديه؛ ثم كان يستدعي مجموعة ضباط عسكريين ليستمعوا إلى نسخة مختصرة عن حوارنا؛ أخيراً، كانت تنضم إلينا مجموعة مدنية للاستماع لشرحٍ أشد اختصاراً.

أشرف الأسد على العملية برباطة جأش وبروح تهكمية. وهو مثل المفاوضين الإسرائيليين، لـم يؤمن بالمبادرات الفردية ولم يكن في موقع يتيـح توظيفها. كان الأسد ذكياً، قاسياً، ساحـراً، عندما يريد هو أن يكون كذلـك، وكان اختصاصياً في المضي بالتفاوض ساعياً وراء الحصـول على كل تنازل ممكن ـ حتى لو عنـى ذلك تعريض كل المفاوضات للخطر وإضعـاف موقف سورية بشكل عام. فيما يتعلق به، لم يكن للسلام قيمة مجردة، ولم يدّعِ قـط أنـه كان كذلك، إذ كان السلام يجسد، من وجهة نظـره، توازناً قوياً سينتهي عندما يتغيـر التوازن. وهكذا فإن إعلان اتفاق رسمي مـع إسرائيل يعني فقط الإعلان الرسمي عـن توازن القوى الحالي. لقد أدرك مجموعة مـن وزراء خارجية أمريكا المتلاحقين أن محادثاتهم معه يجب أن تتركز حول اختراق مفهومه لطبيعة السلام. وهذا شيء محكوم

عليه بالفشل. لم يكن الأسد قط مستعداً لأن يعقد أكثر من هدنة مهما تكن الترويسة الظاهرة للوثيقة التي ستوقع في النهاية.

خلال جولة 1975 المكوكية، كان لدى الأسد هدفان: تجنب حدوث اتفاق مصري إسرائيلي منفصل، وفي حال حدوثه فالاشتراك في المحادثات؛ طريقة تخلق وضعاً مساوياً للسادات. لكن إسرائيل لن تفاوض على مرتفعات الجولان، والسادات لن يدع سورية تقرر سير مفاوضاته.

كنت أعرف أن الأسد مدرك تماماً لاستراتيجيتنا، لكنه أكثر حكمة من أن يتبنى مواجهة مع الولايات المتحدة. لذلك أبقيته مطلعاً للمحافظة على احتمال لعبه لدور ما في المستقبل وليقصر معارضته على اعتراض لفظي. وقد أبدى الأسد تعاوناً لأنه لم يكن يملك بديلاً أفضل. وسوف ينتظر الفرص المناسبة إما لإغراق عملية السلام وإما للاستفادة منها؛ حسب الخيار النهائي الذي سيفرضه توازن القوى.

تبين أن المحادثات مع الرئيس السوري في التاسع من آذار غير حاسمة كما توقعناها (وبطريقة ما خططنا لها). لم يكن لدي أي شيء ذو علاقة باهتمامات السوريين لأعرضه، ولم يؤمن الأسد بالإيماءات غير المتبادلة.

وصلنا إلى إسرائيل تلك الليلة في جولا يشجع على المفاوضات. لأن إسرائيل كانت تبكي مقتل مدنيين إسرائيليين وجنديين في تل أبيب على يد إرهابيين عرب نزلوا بقاربين صغيرين واستولوا على فندق ساحلي، هاجمه فيما بعد الجيش الإسرائيلي. كان عداء العرب متأصلاً جداً بحيث كان من الجنون المجازفة بالأمن الذي يؤمنه وجود فاصل من الأراضي بين الطرفين والذي من شأنه المساهمة في إثبات نوايا العرب الحسنة الوهمية.

كالمعتاد، انتقلنا مباشرة من المطار إلى اجتماع مع الفريق المفاوض الإسرائيلي. لكن، ولأول مرة، رتب رابين عشاءً اجتماعياً. لدهشتنا، لم يُخضع المفاوضون الإسرائيليون شرحي للمحادثات التي أجريتها مع السادات في ثوانٍ للتحقيق المعتاد الصارم والدقيق والمشكك بنوايا السادات. وركزوا بدلاً من ذلك على مروري الخاطف والذي لم يكن ليتضمن أي معنى رئيسي لدمشق. ونظراً لأنه لم يكن لدى رابين وزملائه النية للتفاوض مع سورية، كان هذا الجزء من المحادثات مرحاً نسبياً. إنه لأمر مريح، على سبيل التغيير، ألا نخضع مباشرة للتأويلات المنهكة التي يُتعب بها المفاوضون الإسرائيليون محاوريهم.

في الوقت نفسه، كان هناك مظهر منذر بالشؤم لهذا المناخ الجديد الخالي من المشاكسة والنزاع. وربما التفسير الوحيد المحتمل لهذا السلوك الهادئ للفريق الإسرائيلي المفاوض، كان إما أن الوزارة قد توصلت إلى قرارها، وإما على الأرجح، أنها قد فشلت مرة أخرى في التوصل لأي قرارات، بحيث لم يتبق

لدى المفاوضين الإسرائيليين شيء يقولونه لنا. سيسكو، من جهته، همس في أذني مشككاً: «إنهم ودودون إلى درجة زائدة» فأجبته: «لقد أصبحنا شديدي الريبة».

ختم رابين الأمسية بتسليمي مذكرة تحوي سبع مبادئ، ستوجه الفريق الإسرائيلي المفاوض ـ كما لو كنا في حلقة بحث أكاديمية، لا في المرحلة الأولى من الجولة المكوكية. كانت اللغة استرضائية، لكن لم يكن هناك شيء ليتم العمل بناءً عليه، والنقاط السبع كانت نسخة معممة لما كنا نشير لأشهر إلى أنه غير كافٍ.

عندما وصلنا أخيراً في صباح العاشر من آذار، اليوم الثالث للمكوك، إلى التفاصيل، بدا واضحاً أن رابين، على عكس كل خبراتنا السابقة، لم يستخدم التأخير الذي فرضه علينا لدفع وزارته نحو التسوية. ولدهشتي، فقد أعلمنا أنه لا يوجد اقتراح لأخذه للسادات، ولاخريطة، ولاحتى توضيح لمفهوم الانسحاب لمسافة تتراوح بين 30ـ50 كيلو متراً الذي ذكره آلون لفورد في أيلول. وبدلاً من ذلك، تعرضت الفقرات التي اقترحها السادات لإنهاء حالة الحرب إلى انتقادات قانونية مهلكة اعتماداً على أن التنازلات كانت إما غير كافية وإما لا معنى لها لأنه من الممكن إلغاؤها في أي وقت.

كان النقد الإسرائيلي دقيقاً وغير ملائم في الوقت نفسه. كان يمكن للنقد ذاته أن يقال لو أن السادات وافق على تعهد رسمي لإنهاء حالة الحرب ــ أو، لأجل ذلك، على سلام رسمي. للتأكد، كانت التنازلات الإسرائيلية إقليمية، فيما كانت المنافع المفترضة قابلة للإلغاء. وقد كانت غير ملائمة لموضوع البحث لأنه، منذ البداية، كان واضحاً أن هذا سيصبح أساس المفاوضات. مهما كانت وجهة أي اتفاقية ومهما كانت شروط مدتها الزمنية الرسمية، فإن الاتفاقيات بين الدول المستقلة ـ حتى اتفاقيات السلام ـ يمكن دائماً إبطالها. وما كانت عقوبة إبطال اتفاق سلام أو تجاهل تصريح إنهاء حالة الحرب سوى الذهاب إلى الحرب! ـ وهو بالضبط ما يفترض أن يمنعه اتفاق السلام أو التعهد بإنهاء حالة الحرب.

كان القرار النهائي أمام الفريق الإسرائيلي المفاوض هو حول ما إذا كان إبعاد السادات عن مقررات الرباط، واعتماده على الاتحاد السوفيتي مقابل التخلي عن أراض ستجعل الخطوط المصرية على بعد مئة ميل من الحدود الإسرائيلية، كان أكثر خطورة من العودة إلى الموقف السابق الذي قد يعني المجازفة باحتمال نشوب حرب أو خسارة المسار الدبلوماسي لتحقيق السلام. إن التحليل القانوني والساخر لعرض السادات قد تجاهل الواقع العصيب بأن البديل الوحيد هو العودة إلى المؤتمر الدولي في جنيف، حيث ستواجه إسرائيل تحالفاً من كل خصومها وكذلك الحاجة لأن تحول لمصلحتها القضايا والموضوعات الأكثر تعقيداً مثل مستقبل القدس والحدود النهائية. فهمَ بعض الأعضاء الرئيسيين في الفريق المفاوض الإسرائيلي ــ ورابين بالتأكيد ـ هذه الخيارات البديلة بما فيه الكفاية، إلا أنهم تركوا، في بعض الأحيان، انطباعاً بأنهم يخافون من بعضهما بعضاً أكثر من خوفهم من حدوث انفجار دبلوماسي.

وفـي مجـرى كل تفاوض، هنـاك نقطة يتم التوصـل إليها عندما يقـرر الفرقاء أنهـم سيصلون إلى تفاهـم فـي النهايـة أو أنهم سينتهـون إلى طريق مسـدود. ففي الحالـة الأولى، يتعالـى الضغط الناجم عـن التفاوض؛ ويعاد تقويم الموضوعـات الفردية في ضـوء إجماع وشيك على مقـررات معينة. أما في الحالـة الثانية، فبالرغم أن الإجراءات المتعلقـة بالعملية سوف تستمر لبعض الوقت، إلا أن المفاوضات محكوم عليها بالهلاك لأنه، منذ ذلك الحين، سيركز كل فريق على توجيه اللوم على الفريق الآخر لفشل المفاوضات.

وعلـى الرغم مـن استمرار الجولة المكوكية عشـرة أيام أخرى، إلا أنها في الواقـع انتهت بعد الجولة الأولـى مع الفريـق الإسرائيلي المفاوض. إذ لم ينجم ذلك عن كون المطالـب الإسرائيلية مبالغ فيها. بل كانت تلك النتيجة إجراءً اعتيادياً للجولات التمهيدية مع الفرق الإسرائيلية المفاوضة، التي اعتادت جمع أولويات كل واحد من أعضائها ـ لكن التغيير من غولدا مائير إلى رابين جلب معه اختلافين في النهج ثبت أنهمـا حاسمـان. كانت غولدا قاسية في حياتها الخاصة كما كانت فـي جلسات المفاوضات؛ وقد عرفنا ـ معهـا ـ أين نقف. أما فـي بداية بصفته رئيساً للوزراء، فلم تكن الحال معه على الشاكلة. ففي المحادثات الخاصـة، إذ تـرك عندنا قناعة بأنه موافق ليـس على استراتيجيتنا ولكن على شروطنـا الرئيسية أيضاً؛ بـدا مبدئياً مهتماً بتخفيـف الأعباء عن إسرائيل، وذلك بإعادة تشكيل البنيـة التحتية العسكرية الداعمة للخطـوط الجديدة، لكن في جلسات الفريق المفاوض، أصر رابين بصلابة على مبادئه السبعة، ولم يؤيد سلوك الطريق التدريجي نحو بلوغها.

في استعادة للأحداث، أظن أن هذا مرده إلى امتلاكه تركيبة ذهنية تحليلة أكثر حدة من غولدا وإلى خـوف كبيـر من حكومته. كانت زيارة الفريق تطول عندما تكون الرحلات المكوكية فعالة، لأن كل طرف ـ بما فيه الإسرائيليون ـ كان مستعداً للقيام بتعديلات طفيفة في موقفه فيسهّل هذا المناخ ويشجع الطرف الآخر على القيام بتعديلات من جانبه. وبهذه الطريقة، قرب الطرفان الفاصل بينهما.

فـي هـذا المكوك، اتخذت الـوزارة الإسرائيلية قراراً بعـدم تغيير موقفها إلـى أن أتوصل إلى تحقيق تقريـب وجهة نظـر السادات من الحدود العليا لموقفهـا. وأنا واثق بأن رابين، كما آلـون، كان يأمل بأنني بشـكل مـن الأشكال سأعود من المكوك بعد أن أكون قد سحبت الأرنب من القبعة. وحينذاك سوف يوصي رابين بتقديم تنازلات إسرائيلية على قدر من الأهمية.

كان ذاك مفهوماً خاطئاً لدبلوماسية المكوك. لأن السادات كان ملزماً بتفسير ما يقيد حقاً سياسات الـوزارة الإسرائيلية على أنه هجوم على كرامته الوطنية. ومع كل جولة مكوكية، كان يصير أقل وداً. بينما كان ـــ يلعـب وفق القواعد القديمة ـ يعدل ويغير من موقفه، إلا أنه ولكـن ليس بالنزعة نفسها التي تجاوز بها كل الأزمات السابقة.

فهـم رابين المعضلة، ولكونه غير قادر على تحريك وزارته نحو تسوية أو حتى مفاوضات جدية، حاول رأب الصدع بعمل بارع شخصي. فكتب رسالة عميقة للغاية للسادات حاول فيها أن يعوض له بما يبديه من نواياه الحسنة عن عدم وجود إجماع في الرأي داخل الوزارة الإسرائيلية.

بدأت الرسالة بالتحية لدور مصر في المنطقة واعتراف بدور السادات المعتدل:

«لقد كان دائماً اعتقادي الراسخ أن مصر، بفضل ميراثها الثقافي، وقوتها، وحجمها وتأثيرها، تحمل صوتاً قيادياً بما يتعلق بالجهود المبذولة في منطقتنا لإحلال السلام. ومما نقله الدكتور كيسنجر لي، ومن تصريحاتكم العامة، أحس بثقة أنكم مصممون على القيام بجهود شاقة للتوصل إلى تسوية.

أنـا، مـن جانبي، مصمم علـى القيام بكل الجهود لتعزيـز السلام بيننا، وإنني بهـذه الروح أعبر عن التطلع إلى النجاح في التوصل إلى اتفاق مشرف لشعبينا».

عَبَـرَ رابيـن عـن استعداده للقيام بانسحـاب آخر، لكن لم يكـن بإمكانه عمل، هـذا دون الإشارة إلى أن مثـل تلـك التضحية التي تمثل انعطافـاً جوهرياً نحو السلام. لقد قال لي السـادات مراراً: إن المشكلة الكامنة بين العرب وإسرائيل مشكلة نفسية. وها هو رابين مصمم الآن على تحديد ذاك التحدي النفسي. وقـد ناشد السـادات ليضمن في الاتفاق بعض التعهـدات الرسمية بالالتزام بالسلـوك السلمي؛ كاد يكون الطلـب نفسه الذي تقدم به بنبرة أعلى خلفه بنيامين نتنياهو، بعد ربع قرن تقريباً في مفاوضات «مزرعة واي ريفر» عندما كان يبحث موضوع الانسحاب الإسرائيلي من الضفة الغربية.

«.. يجـب أن يعـرف شعبـي أنه خلال عمليـة الانسحاب إلى خـط جديد متفق عليه نكـون قد توصلنا إلـى منعطـف هـام، وبأننا نلج عصراً سـوف نتمكن فيه من تسويـة كل خلافاتنا بالطـرق السلمية فقط. وباعتباري رئيس وزراء، يجب أن أكون قادراً على إقناع كل من الشعب والحكومة في إسرائيل بأننا بتسليم بعض المواقع الاستراتيجية لن نعرض أنفسنا لمزيد من المصاعب التي قد أوجدتها خطوط أطول وأدنى مـن صـراع متجدد. يمكن لهذا أن يصبح ممكناً فقط إذا تبدى أن القيام بالانسحاب سيكون مَعْلَمَ البداية الحقيقي نحو السلام بالأفعال والأقوال التي تُظهر نية السلام.

سلمـت رسالـة رابين إلى السادات في أسوان في الثاني عشر من آذار قبـل العشاء مباشرة. وقد تأثر بشدة. فلو أن الرسالة تضمنت أي تنازل إسرائيلي ملموس، لكان من المؤكد حدوث تقدم في المسار.

نفـث السادات دخـان غليونه لبضع دقائق قبل أن يتكلم: «من المهم لي جـداً أن أعرف من الذي فكر بهذا»؟. أجبت: إنها فكرة إسرائيلية، الأمر الذي كان صحيحاً إلى حد ما فقط لأنني أنا من شجعت رابين، الـذي تجاوب بحماسة. استفسـر السادات: «هل كتبوها؟! إن هذا الأمر على قـدر كبير من الأهمية». ولم أتـردد قـط في التأكيد على أنها بالكامل مسودة إسرائيليـة، وبأنني لم أعدلها، بل حتى لم أرها إلا بعد أن تمت. طوى السادات الرسالة ووضعها في جيبه.

وفـي اليوم التالي، طلـب السادات أن يراني وحدي، والرسالة أمامه، رد بالجواب الشفهي التالي، هذا فحواه مما أتذكره من ملاحظاتي المدونة:

مـا أريـد أن يعرفه إسحاق رابين، هو الـروح الكامنة وراء عبارات إظهار النيـة لتحقيق السلام الذي نتفاوض بشأنـه. موقفي هو أن القوة لن تلعب أبداً أي دور مجدداً في العلاقات بين شعبينا. وسوف أحاول معالجـة أمر الشعب العربي إن عرف رابين كيف يعالج أمـر الشعب الإسرائيلي. إنني مصمم على تحقيق الانسحـاب النهائي وفق خطـوط متفق عليها بالطرق السلمية فقط. وإن عقد مؤتمر جنيف بعد توقيع هذا الاتفـاق، فلـن أمسَ هذا الاتفاق وكذلك لن يغير أي شيء بيننا في جنيـف، يمكنك أن تطمئن رابين بأنني من جهتي لا أحلم بحل هذا في جنيف. مهما كانت المشكلات، فلن ألجأ إلى القوة. وأنا على استعداد للقاء رابين فور انتهاء الاحتلال الإسرائيلي للأراضي المصرية.

إذا كان لكلمات السادات أي معنى، فهو أن رابين قد حقق بالفعل هدفه السياسي الأكثر أهمية: تخلي السـادات عـن استخدام القوة في تسوية الخلافـات العالقة مع إسرائيل، حتى فيمـا يتعلق باستعادة بقية الأراضـي المصرية. فقد وافق على ألا يستخدم مؤتمر جنيـف للضغط على إسرائيل، ووعد بالقيام بلقاء رابيـن وجهاً لوجه. وإذا لم يكن هناك استعداد لتصديق كلمـات السادات، فسيثبت أن الشروط الرسمية فـي أي اتفـاق مؤقت لا معنى لها. وبطريقة غريبـة، لم تعد المفاوضات تدور حـول التفاصيل التي أعلنها الفريقان المتفاوضان وإنما في كيفية تمكين شعبي الطرفين من إدراك قناعات قادتهم.

أظهـر التغيير في الإجـراءات أن السادات قد توصل إلى حدود ما كان يمكنـه إنجازها بنفسه. وحتى ذاك الحيـن، كنـا نلتقي، أنا وهو، وحدنا لوضع المبادئ التي قام الخبـراء ـ سيسكو، أثرتون، وساوندرز، والسفيـر هيرمـان ايلتـز مـن جانبنا، والجمسـي وفهمي مـن الجانب المصري ـــ بعدها بنقلهـا إلى لغة المعاهدة. في هذه المناسبة، ولأول مرة، انضم السادات، في لقاءين استمر كل منهما مدة ثلاث ساعات فـي 12 و13 مـن آذار، إلى جلسات وضع المسو ـ التي كان عال الصبـر لديه بخصوصها محدوداً. وتمنعاً في الاحتمالات كافة، فهم أن مساعديه سوف يقاومون التنازلات الكاسحة التي لم يكن لهم يد في صوغها وأنهم مصممون على جعله يأخذ على عاتقه المسؤولية كاملة ليس فقط بشأن التوجه العام لعملية السلام، بل بشأن شروطها المفصلة أيضاً.

أولـى السـادات اهتماماً خاصـاً بكيفية استثمـار اتفاق على ذلك القـدر من الأهميـة السياسية التي كان رابيـن يطالـب بها. عرض إعلان وثيقة تصف الاتفاق بكونه خطـوة نحو السلام، علاوة على الإعلان الرسمي بأن مصر سوف تسوي جيمع الخلافات المتبقية كافة بالطرق السلمية (والتي تتضمن النزاعات الإقليمية المتعلقة بالأراضي المصرية). كما اقترح الإعلان فقرة يستنكر فيها الفريقان اللجوء إلى القوة طيلة مدة الاتفاقية، لتهدئة المخاوف الإسرائيلية بشأن المدة الزمنية للاتفاقية وإمكانية إبطالها، وكذلك لإضافة فقرة أخرى تجعل الاتفاقية سارية المفعول إلى أن تلحق باتفاقية أخرى تحل محلها.

وافـق السادات على تشكيل لجان مصرية إسرائيلية مختلطة للتدقيق باتهامات أي انتهاك ولفتح قناة السويـس وكذلك مضيق باب المندب (المدخـل إلى البحر الأحمر) أمام السفـن المتجهة إلى إسرائيل. وأخيـراً، وافق على خفض الدعاية المعادية لإسرائيل في إذاعـة القاهرة وتخفيف المقاطعة الاقتصادية للشركات الأمريكية على مراحل تدريجية. وختم السادات عرضه بقوله ـ مازحاً ـ بأنه: مع هذه التنازلات، إذا لـم يتمكـن من الحصول على وصـف من إسرائيل للخط الـذي هي على استعداد للتراجـع إليه، ربما سينتهي به الأمر بأن يقبض عليه الجمسي هو وفهمي.

مجـدداً تباطـأ خط سير المحادثات وأصبـح جليدياً مع عودتي إلى إسرائيل فـي 14 من آذار، اليوم السابع للمكوك. فالحالة العامة هناك بعيدة عن أن تكون واعدةً. فكان الإعلام الإسرائيلي يعزف على وتر ابتـزار أمريـكا دون النظر إلى حقيقة أن التنـازلات كافة، كل حتى ذلك الوقـت، كانت قد قدمت من قبل الجانـب المصـري فقط. بدا أن الفريق المفاوض غير متأثر برد السـادات على رسالة رابين، ونظراً لأنه لم يعقد أي اجتماع وزاري بينما كنت في أسوان، بقي الموقف المعياري بالتأكيد على حاله دون أي تغيير. كان الاجتمـاع الوزاري التالي مبرمجاً ليـوم الأحد، 16 آذار، مما يعني تأخر صدور أي قرار جديد ليومين على الأقل.

وفـي اجتماع متوتر استغرق ثلاث ساعات فـي 14 آذار، قيّد المفاوضون الإسرائيليون أنفسهم بأسئلة متشككـة لمحّوا من خلالهـا إلى أن تنازلات السادات لم تكن كافية، هـذا إن كان يمكن اعتبارها تنازلات على الإطلاق، مما يعني أنهم مازلوا مصرّين على تصريح رسمي بإنهاء حالة الحرب. ووعدوا أن يسلموني ردهم على السادات مساء 16 آذار، أي اليوم التاسع للجولة المكوكية.

كان السيـر المتأنـي في صناعة القرار الإسرئيلي دون إبـداء أي مساهمة إسرائيلية للخروج من ذلك الطريـق المسـدود أمراً غير مسبوق. وقد ترك ذلك الموقف الإسرائيلـي بعض الشكوك فيما يتعلق بقرار الـوزارة المحتمل عندمـا ادعت بأن الاقتراحات المصرية «من النظرة الأولـى، غير كافية وغير مرضية» من نواح عدة.

خـلال تلك الثغرة الزمنية، سافرت إلى دمشق وعمان في 15 آذار في محاولة لتهدئة جيران إسرائيل الآخرين القلقين والمشككين بشكل متزايد. لم يصدق الأسد ولا الحسين أن الولايات المتحدة غير قادرة على إقناع إسرائيل، وفسرا التأخير بمنزلة مقدمات لصفقة كاسحة سوف تستثنيهما.

كان الأسـد يمقـت فكرة عقد اتفـاق منفصل بين مصـر وإسرائيل لأنها بلا شـك ستنقص من قوته ونفـوذه. كان مدركاً بشكل جيد أننا كنا القوة الدافعة الرئيسية من وراء العملية لتقويض موقف المفاوض السـوري. علـى أي حـال، كان استقبالي في دمشق حاراً بشكل غير عادي لأن الأسـد أيضاً فهم أن خياريه الوحيديـن كانـا إما الإخفاق وإما الوساطة الأمريكية. كان هذا الوضع مؤلمـاً للقائد السوري، ولاسيما أن

وسائل الإعلام الإسرائيلية لم تكل قط أو تمل من الإعلان عن رفض حكومتهم لأي اتفاق مؤقت جديد مع سورية وتصميمها على الاحتفاظ بمعظم مرتفعات الجولان في مرحلة السلام النهائي.

التقينا في مكتب الأسد، حيث كانت الستائر القرمزية مسدلة دائماً، مضفية جواً من العزلة أشبه ما يكون بالشرنقة. بدا تماماً أن الأسد كان غير مقيد بأي جدول أعمال، لذا أمضى مدة طويلة في التحدث عن شؤون العرب الداخلية وعن أعلامهم، التي أعطت المجال لإطلاق تعليقات لاذعة عن خيانة السادات المزعومة ونفاق فهمي. في هذه المناسبة، نقل لنا الأسد إدراكه ـــ وهو بلا شك نابع من وسائل الإعلام الإسرائيلية ـــ بأنه ليس لدي أي جديد لأخبر عنه وتركني أوجز ذلك لكل زملائه بآن واحد. بعد ذلك ـ وعكس الإجراء المعتاد ـ عقدنا اجتماعنا الخاص.

أعلن الأسد عن رغبته في تحسين العلاقات مع الولايات المتحدة، وهذا ما فسرته بأنه علامة على إبداء النوايا الحسنة أقل من كونه ناجماً عن تحليل بدم بارد لتوازن القوى في الشرق الأوسط. ولا يمكن للأسد أن يكون الأسد لو أنه فشل في مزاوجة تصريحه عن نية السلام مع التهديد:

(أُحس بألم عظيم؛ عندما أرى طفلاً مصاباً لكن عندما تكون الحرب هي السبيل الوحيد للخروج من أزمة أو الطريق الوحيد لاستعادة شرف المرء وأرضه، عندها لا أحصي الخسائر، بشرية كانت أم غير ذلك، لأن الخسائر السورية آنذاك سوف تندرج تحت عنوان «تضحيات»).

أجبت بأن سورية، بتقديرنا، سوف تعاني من هزيمة ساحقة. وواجه الأسد هذا القول بأن سورية ـ كونها عرفت أن إسرائيل «لا يمكنها تحمل الألم» ـ سوف تنهج استراتيجية معينة، لا تهدف إلى تحقيق النصر بقدر ما تهدف لتوجيه ضربة توقع الكثير من الإصابات والخسائر في حرب طويلة الأمد. وعلى عكس ماحدث في زيارتي الأسبوع الماضي، حثّ الأسد على إنجاز اتفاق جزئي بشأن مرتفعات الجولان يتزامن مع المفاوضات المصرية بشأن اتفاقية الانسحاب.

ومع اقتراب المساء تابعت جولتي إلى عمان، حيث تكون الأجواء دائماً خالية من التوتر. مع أن الحسين كان ما يزال متألماً من استبعاده عن عملية السلام إثر مقررات الرباط، فهو لم يغير مطلقاً نظرته في كون الولايات المتحدة هي الكفيل الذي لا يستغنى عنه لضمان بقاء سلالته. شجع الأردنيون النوايا الأمريكية الحسنة بسلوك وأسلوب في التعامل خال من الأخطاء وبحسن ضيافة مدروسة ـ على الرغم من وجود بعض التوتر في تلك الزيارة. ولأنني، مثلهم، أؤمن بمجتمع المصالح المتبادلة، التمست آراءهم عن العواقب المحتملة في حال فشل المكوك الذي كانوا يكرهون فكرة فشله. كم من الوقت ما زال يلزمنا لمتابعة الضغط؟.

حدثني الملك حسين ورئيس الوزراء زيد رفاعي مترفعين فوق عواطفهما، عن قطع الميل الإضافي. وقد قالا: إن الفشل في المفاوضات ربما يتسبب بدفع السادات لتغيير المسار أو الإطاحة به، وهذا بدوره

سـوف «يحكـم على المنطقة بحرب أخرى». نتيجة كهذه سوف تعتبر مـن قبل كل بلدان المنطقة على أنها برهـان جديـد لما يسمونـه «تخلي الولايات المتحـدة عن أصدقائهـا وحلفائها ـ فيتنـام وكمبوديا. والآن السادات والمعتدلين الآخرين في الشرق الأوسط».

التقينـا مجـدداً مـع الفريق المفاوض الإسرائيلي مسـاء يوم الأحـد 16 آذار، لتلقي موقـف الوزارة الرسمـي. كان الحـذر يلف الأجـواء. وفي ملاحظاتـي الافتتاحية، أشـرت إلى اللهجـة العدوانية لوسائل الإعلام الإسرائيلية، التي وَضَحَتْ أن الإيعازات الحكومية قد غذتها:

أولاً، أود القـول إنـي آسف لتولد انطبـاع لدى الرأي العام عندكم، بأن الولايـات المتحدة متواطئة مع مصـر لاستخلاص تنازلات، بطرق ذكيـة من إسرائيل. إن هـذا من شأنه تعقيد الأمـور، برغم الميزات قصيرة المدى التي قد يعطيها.

تجاهـل رابيـن تلك الكلمة وسلَّم في النهايـة رد وزارته على الاقتراحات المصريـة التي أتينا بها قبل يوميـن. أزال ذلـك الرد أي شك حول كون حملة وسائل الإعلام العدائية مجرد حدث عرضي. لأن الوزارة قـد قـررت أن تثبت على موقفها الذي كنا أنا وفـورد قد حذرنا منه قبل ستة أشهـر. سيتم الانسحاب من مزيـد من الأراضي في سيناء فقط مقابل «إعلان إنهاء حالـة الحرب»؛ وسيكون التعويض الإسرائيلي إما بالممـرات وإمـا حقول النفط لكن ليس كليهما. وقد حددت الوزارة أن أي تنازل مصري أقل من التصريح الرسمـي بإعـلان وقف حالة الحرب سيكـون غير كاف ـ بما في ذلك محاولة السـادات الشجاعة لضمان الكثيـر مـن جوهر مضمـون إنهاء حالة الحـرب دون استعمال الكلمـات السحرية الدالـة عليها. ورفضت الـوزارة أن تشيـر للخط الـذي ستكون مستعدة للانسحـاب إليه مقابل تعهد رسمي بإنهـاء حالة الحرب. وهكذا أمست رسالة رابين وجواب السادات من أخبار الأمس.

تصف لنا الفقرة التالية المقتطفة من مسودة ذلك الاجتماع الجو المتحفظ على أفضل وجه:

رابيـن: لقـد اجتمعنا، وقرأنا ما تـم وضعه أمامنا. لقد فعلت ما بوسعك لشـرح موقفنا للمصريين، وليس لدينا أدنى شك بخصوص ذلك. بل أكثر من هذا، نحن نقدر حقاً ما تبذله. لكن عندما أحاول تلخيص ما تم، أرى أن القليل قد تحقق بشأن النقاط الثلاث الحساسة والهامة بالنسبة لنـا ـــ مسألة عدم استخدام القوة، ومسألة القيام بخطـوة جوهرية حقاً نحو السلام، ومسألة مدة الاتفاق.

إن «إسرائيـل ستعطي شيئاً ملموساً، مادياً، ونرغب بدورنـا الحصول على شيء مادي حتى لو كان من الممكن التعبير عنه بالكلمات..

كيسنجر: إني لا أفهم. إنهم مستعدون لاستخدام جملة «عدم اللجوء إلى القوة».

رابين: هذا في سياق عملية السلام، ولكن ما إن تقف العملية.

كيسنجر: إذن ما الذي تريدني أن أقوله للسادات؟

رابين: إنه ما لم يتحرك بخصوص تلك الموضوعات الثلاثة الرئيسية، لا أدري ما الذي يمكن عمله.

آلون: والحرب الاقتصادية.

رابين: إني ملتزم بهذه النقاط الثلاث الرئيسية

كيسنجر: إذن لا أستطيع إعطاءه أي فكرة عن الخطوط أو عن أي شيء ستكون مستعداً لعمله، على أن يعرض شيئاً مرضياً على بساط البحث؟! أنت ترى، أنه يعاني من أوهام الجهود الكبيرة والتنازلات التي يبذلها. والتي يرى السوريون أيضاً أنه يقوم بها. فهنالك احتمالان أمامنا: فإما أن أعود وأطلب منه أن على تقديم الأفضل، وإما العودة بشيء أريه للجمسي وبأنه بإمكانه الحصول عليه في حال استعدادهم القيام بعمل المزيد.

لكن الفريق المفاوض لم يكن مخولاً بالذهاب إلى ما هو أبعد مما وضعه رابين أمامه، لا من ناحية أي مظهر إضافي لإنهاء حالة الحرب التي أرادوا من السادات أن يسلم بها، ولا من ناحية خط الانسحاب ــ ولا حتى لو قبل السادات بمعجزة الموقف الإسرائيلي. وعندما أشرت إلى أن الفارق بين تعبيري إنهاء حالة الحرب وعدم استخدام القوة محير، وغير واضح تماماً بالنسبة للشخص العادي، ركز رابين على صلب القضية ـ ألا وهو الشلل في الوزارة:

«لسنا مخولين من قبل الوزارة لمناقشة أي شيء عدا إنهاء حالة الحرب، لذا فإننا نأمل أن تكون قد جلبت شيئاً من هذا القبيل. فإن كان الأمر كذلك، فسوف نناقشه مع الوزارة».

من الواضح أن الحكومة قررت أن على السادات أن يسلم بمطالب إسرائيل القصوى قبل أن تميط اللثام عن المقابل الذي ستقدمه. برأيي، لقد خاطر موقف الوزارة بمصداقية أمريكا العامة بوصفتها وسيطاً.

ليس هناك معنى في غشك. يمكنني الاستمرار بهذا مكوكاً آخر. كل مكوك يرفع الثمن بالنسبة للولايات المتحدة. لا أظن أننا نعمل على الموجة نفسها.

أظن أن الجولة القادمة ستفشل. وهنا فإن سؤالاً بالغ الأهمية يطرح نفسه حول ما إذا كان علي استخلاص المزيد من التنازلات من السادات إن كنت أرى بالفعل أنه سيفشل. قل لي سيناريو دقائقي الخمسة عشر الأولى مع السادات: «هل يمكن أن تتخلى إسرائيل عن الممرات والحقول أم لا؟ أرجوك أعطني المزيد». أمام الجمسي وفهمي.

فـي يوم الاثنيـن، 17 آذار، فيما كنت أستعد للمغادرة إلى أسوان، حاول الفريق الإسرائيلي المفاوض، بعـد أن أدرك الانتهـاء الوشيـك للمحادثـات، بتغيير موقفه بشكل بسيـط، وقد حـاول أن يُحمّل السادات مسؤولية فشلها. ونظراً لعدم وجود اجتماع وزاري آخر، فإنه لا يمكن لمثل ذلك التغيير أن يكون ذا أهمية. عرضـ الفريـق المفاوض الانسحاب إلى الحافـة الغربية (الجانب المصري) للممـرات إن وافقت مصر علـى الامتناع عن أي عمل عدائي، حتى على الصعيـد الدبلوماسي. لكن الفريق الإسرائيلي رفض مع ذلك إعطاءنـا خريطـة توضح «الحافة الغربية» للممرات، كما رفض أن يشـرح تعريفه لعبارة «العمل العدائي»، سوى أنه يتضمن دبلوماسية اليوم بيوم. لم نأخذ أنا وزملائي ذلك العرض على محمل الجد. لأنه من دون إرفـاق خريطـة الانسحاب، لم يكن العرض يعني الكثير، لأن الممـرات كانت بطول خمسة عشر ميلاً على الأقل، وليس لها حافة غربية واضحة. لذلك شككنا أن العرض كان طريقة أخرى لتأجيل فكرة الانسحاب لمسافة ثلاثين إلى خمسين كيلو متراً الذي ذكره آلون لفورد في كانون الأول. مع طلب التخلي عن الضغط الدبلوماسـي مضافـاً إلـى الشرط المتفـق عليه مسبقاً بعـدم استخدام القـوة، كان الفريـق الإسرائيلي فـي الواقـع يطلب من السـادات أن يتخلى عما يعتبـره أرضاً مصرية وذلك بتخليه حتـى عن اتباع الطرق الدبلوماسية لاسترجاعها.

وفي مصر، أخذت أزمة الثقة تتفاقم، حيث كان ذلك ينعكس في الأسلوب الرسمي المتزايد للمحادثات. فعندمـا يرى السادات أن الاتفاق وشيك، كان يتحرك للوصول إلى النتيجة بقفزات مفاجئة وحاسمة. لكن الإبقـاء علـى حالة الجمود التي آلت إليها المفاوضات كان بحاجة لدعـم أوسع. ولأول مرة، قدم السادات نائبـه الجديـد، حسني مبارك، مرتدياً بزة القوى الجوية الزرقاء. ومع أن مبارك لم يلعب دوراً رئيسياً في المحادثـات، إلا أنه كان الكفيل الضـروري لضمان مصالح المؤسسة العسكريـة. شارك فهمي والجمسي بشكل فعال، بينما مثل إيلتز وسيسكو جانبنا.

كان رد فعـل السـادات على ما نقلته له كئيبـاً: «إما أنهم لا يستطيعون وإما أنهـم لا يريدون التسوية». وكونـه قـد قبل في السابق التخلي عـن استخدام القوة رغم وجود قسم كبير مـن الأرض المصرية بأيدي الإسرائيليين، فكيـف يمكن مطالبته بالتخلي عن الطـرق الدبلوماسية أيضاً ـ وكل هـذا مقابل انسحاب ترفض إسرائيل تحديده.

مع ذلك، خرج السادات وفهمي صباح اليوم التالي، 8 آذار، بمعادلات جديدة تتماشى مع الاهتمامات الإسرائيليـة. ألغـت هذه المعادلات البند الشرطي من تعهدها بعدم استخـدام القوة فقط في حالة توقيع الاتفاقيـة ـ ولاسيما بما يتعلق بعملية السلام التي اعترض عليها رابين. بكلمات أخرى، إن تخلِ مصر عن القوة سيبقَ فاعلاً حتى لو أن عملية السلام تداعت. كان السادات مستعداً أيضاً لتقديم تعهد، لا لإسرائيل فقـط ولكن أيضاً للرئيـس الأمريكي برسالة خطية منه، بـألا يهاجم إسرائيل شريطـة أن تقدم إسرائيل

التعهـد نفسـه نحو مصر وبالشكل نفسه. وقد أوضح ما فهمته دائمـاً ولكنه كان غامضاً حتى الآن بالنسبة لـه: أن الممرات لن تسلم إلى مصر لكـن ستكون في منطقة تسيطر عليها الأمم المتحدة. كان لدي شعور عميـق أن هـذا العرض، طالما أنه لم يبلغ بعـد التصريح الرسمي بإنهاء حالة الحـرب الذي أصرت عليه الوزارة الإسرائيلية لن يجد أي استحسان في القدس.

كانـت وسيلتنا الوحيدة المتبقيـة للمحافظة على المكوك من الانهيار، هي تقديم طلب أمريكي رسمي للـوزارة الإسرائيلية لإعـادة النظر في موقفها. ويمثل هـذا انتقالاً حاداً من الأسلـوب غير الرسمي الذي كانت تدار به المناقشات الأمريكية الإسرائيلية سابقاً بحيث بعثت رسالة للرئيس في ذلك اليوم للحصول على موافقته حول الصيغة التالية:

إن عواقـب الفشل خطيرة جداً بالنسبة لكل من إسرائيـل والولايات المتحدة بحيث إنه من الضروري لإسرائيـل أن تعيد التفكيـر في موقفها على ضوء آخر الاقتراحات الملموسـة التي طلبت مني مصر نقلها إليـك. إن الفشـل في التوصل لاتفاق المرحلة الثانية المصري الإسرائيلي بعد أربعة أشهر من المناقشات التمهيديـة الشاقة التي ساهمت فيها الولايات المتحدة مساهمة مباشرة سوف يؤثر في المصالح الحيوية للولايات المتحدة وإسرائيل.

كنـت متردداً حول فرض مثل هذا الضغط الرسمـي، لأنه لو نجح سيكشف لخصـوم إسرائيل درجة اعتمادهـا على الولايات المتحدة، الأمر الذي قد يقلل من درجـة اهتمامها بالاعتدال. وإن فشل، فسيؤكد عقـم سياستنـا، الأمر الذي لم يكن بمصلحتنا، ولاسيما في هـذه الفترة بعد انهيار الهند الصينية. ولكن تبيّـن أنه ليس لدينـا أي خيار آخر، طالما أن الـوزارة الإسرائيلية أخطأت في حكمهـا وتقديرها لموقفنا الداخلي. إذ يبدو أنها اعتقدت أن الرئيس غير المنتخب الذي هزم حزبه للتو في انتخابات الكونغرس لن يكون قادراً على الإصرار على تنفيذ ما وضعه فورد في برنامجه لفترته الرئاسية.

ربما ظنت الوزارة الإسرائيلية كذلك ـ أو قيل لها من قبل أصدقاء أمريكيين ـ أنني كنت أعمل وحيداً دون دعم رئاسي حقيقي.

إن كان الأمـر كذلـك، فهو قراءة خاطئة لشخصية فـورد ولعلاقة عملنا. وللأمانـة فإنه منذ أسبوعه الأول في المكتب البيضاوي، كان الرئيس يقابل اللاعبين الرئيسين في شؤون الشرق الأوسط، وقد حازت المقدمـات التـي أسس عليها المكوك على دعمه الكامل. وقد حثّ رابيـن وآلون مراراً وتكراراً على ضرورة التقيّـد بتلك الأسس. وخـلال جولتي المكوكية، كنت أبعث لفورد تقارير يوميـة مفصلة، ملحقة بمكالمات هاتفية متكررة لبرنت سكوكروفت، الذي كان يوجزها للرئيس.

عيل صبر فورد لتوقف سير العملية الذي يلوح بالأفق لدرجة أكبر من نفاد صبري بعد أن عززته رسالة أرسلهـا السـادات دون علمي، بعد أن غادرت مصر أي بعد ظهر الأربعـاء 18 آذار، طالباً فيها تدخل فورد

الشخصي، ومعبراً عن سخطه من الاقتراحات الإسرائيلية التي طالبت بالحصول على كل مزايا «السلام الحقيقي والنهائي» مقابل «فك ارتباط محدود للغاية». كانت مناشدة لفورد من ورائي غير مسبوقة وإشارة واضحة إلى أن السادات بدأ يفقد صبره من سير العملية ومن الوسيط على حد سواء.

ونظراً لأن فورد كان يشارك السادات بالفعل بوجهة نظره، كان رده على مسعاي المقترح إلى الحكومة الإسرائيلية فظاً وواضحاً. فأرسل لنا سكوكروفت البرقية التالية نيابة عن الرئيس:

«لقد قرأ الرئيس تقريرك الأخير. إنه يوافق على كل كلمة ويريدك أن تؤكد لرئيس الوزراء والوزارة أنك تتكلم بتفويض كامل ودعم كلي منه. فالرئيس يدعم تماماً جهودك الحالية والاستراتيجية التي تمثلها ـ هذه الجهود ـ ويشعر بأن هذه الجهود تحظى بدعم كامل من الشعب الأمريكي بأسره.

قال الرئيس أيضاً: إنه لا يمكننا أن نضع أنفسنا في موقع يعزلنا عن باقي العالم من أجل الوقوف وراء التعنت السياسي الإسرائيلي. إلا أنه لم يحدد ما هو الأنسب بخصوص هذه الملاحظة من ناحية قولها على لسانه أم لا. وأنا أترك الأمر لحكمتك».

بهذا الوقت انتهت جولتنا المكوكية في القدس إلى روتين. ونظراً لعدم قيام الوزارة بإعادة النظر في موقفها أثناء وجودنا في مصر، كان علي أن أنتظر على الأقل يوماً بعد عودتي للحصول على ردها أو على اقتراحات جديدة. ونتيجة لهذا البرنامج، انقسم أعضاء الفريق الإسرائيلي المفاوض، ودون تعليمات الوزارة، كرسوا أول ليلة لعودتنا إلى القدس لتوجيه بعض الأسئلة التوضيحية التي كانت غالباً ما تسبب لنا الضيق. ولتجنب الاضطرار لإعطاء وسائل الإعلام المهتاجة خلاصة ما تم التوصل إليه أو لعدم المخاطرة بإمكانية اتهامهم بتقديم تنازلات غير مخولين بتقديمها، لم يبين أفراد الفريق موقفهم الفعلي. بعد أن نقلت لهم رد فعل السادات مساء ذلك الأربعاء، لم يبقَ أمامي أي شي أفعله في القدس إلى حين اجتماع الوزارة. لذلك أمضيت يوم الخميس، 19 آذار، في الرياض لأوجز ما حدث للملك فيصل والأمير فهد (الملك مستقبلاً). بغض النظر عن روابط المملكة العربية السعودية القوية بسورية ومعارضة الأسد الكلامية على اتفاق منفصل، ألحَّ علي فيصل بالمثابرة. ومن الملفت للنظر، أن كل الشروط والمتطلبات السياسية اللازمة لعقد اتفاق إسرائيلي مصري قد تحققت ماعدا الموافقة الإسرائيلية.

عند هذه النقطة انقلبت الطبيعة الدبلوماسية للجولة المكوكية. فعند البدء بالجهود الدبلوماسية للمكوك، كان كلا الطرفين متحمساً للتوصل إلى واتفاق. فإسرائيل، المنهكة من حرب تشرين 1973، سعت لفترة راحة ولعودة سجنائها. والسادات، مدرك لمدى اقترابه من الكارثة، كان متلهفاً لإنهاء حصار جيشه الثالث وللتغلب على الأزمات التي قادتهم سابقاً إلى الحرب. لقد أدى ذلك التغيير السريع في الأماكن التي كنا نقوم بها، والوقت المحدود الذي يمكنني البقاء فيه بعيداً عن واشنطن إلى طريق مسدود، وحس درامي جعل جميع الأطراف حذرين من المضي في عنادهم.

بعـد أربعة عشـر شهراً، كان الاندفاع قد ولى أو على الأقل لم يعد يُحسـ به بالقدر نفسه. وأدى توقف أعمـال المكوك لتضخيم المأزق، مقوضـاً هيبة كل الفرقاء، ولاسيما الولايـات المتحدة، ومهدداً بتحويل تلك الدراما إلى مسرحية هزلية سخيفة. لقد أضعف كل تنازل حصلنا عليه من الطرفين ولم يقربنا أكثر في الخاتمة من قدرة أمريكا على صنع الأحداث، ليس فقط على صعيد نتائج الجولة المكوكية، ولكن على صعيد إبقاء الغطاء على المرجل الذي يغلي تحت الشرق الأوسط.

وصلت جولة آذار 1975 المكوكية سريعاً لنقطة الإحباط الذاتي. فطالت اجتماعات الوزارة الإسرائيلية بتناسب عكسي مع التقدم الحاصل. فلم تثمر جلسة استمرت عشر ساعات أخرى في 19 آذار إلا عن مجرد تغييـرات رمزيـة في الموقف الإسرائيلي. وفـي اجتماع صباحي تم في 20 آذار، عرض الفريق المفاوض الانسحـاب إلـى وسط الممرات، الأمر الذي كان، من دون وجـود خريطة، لا معنى له تقريباً والذي تكشّف فيمـا بعـد على أنه أُسس على تعريف شاذ لكلمة «وسـط». طُلب مني نقل هذا الاقتراح إلى السادات مقابل استخلاصـ تعهد رسمي بإنهاء حالة الحرب يعلن عنه لاحقاً، علاوة على تحسين العلاقات الدبلوماسية ـ أي بالضبط ما أوضح السادات أنه لا يمكنه عمله. بدا أن أعضاء الفريق الإسرائيلي المفاوض غير قادرين علـى استيعـاب فكرة أن عملية السـلام تلفظ أنفاسها. لذا فإنهم لم يتحركـوا عندما قرأت عليهم الطلب الرسمي بإعادة النظر بموقفهم الموافق عليه من قبل فورد، وبقوا على موقفهم المتصلب الرافض إعطاء أو تحديد المقصود بالضبط من كلمة «وسط» الممرات.

كانـت زيارتـي الأخيرة لأسوان في وقت متأخر من يوم الخميـس 20 آذار مناسبة حزينة. فقد استسلم السادات. الذي كان يغلي كعادته، ويكرر الآن بعض مواقفه بحزن ودون اقتناع. وكما هو متوقع، رفض عرض وسـط الممرات باعتباره غير جدي في غيـاب الخريطة. لقد وصلنا إلى النقطة التي تبخرت معها كل آمال النجاح، لأن أي تغييرات إضافية من شأنها، بصورة أساسية، إضعاف موقف السادات المحلي دون الاقتراب بحـق من الاتفاق. وفي الواقع فإن الضغط للحصـول على أي تعديل في الموقف المصري سوف يقوض من هيبة الأمريكيين ما لم يكن بمقدورنا تحويل إسرائيل. وقد تحدث السفير إيلتز عن حالة السادات:

«هنـاك كآبة كبيرة، وإحباط ومـرارة بين المصريين. وهم يعلنون عـدم قدرتهم على فهم كيف أنك باشـرت مهمتـك المكوكية دون أن يكـون لديك فكرة أكثر وضوحـاً عن الربط بين مطالـب الإسرائيليين وعروضهم».

عندمـا قلت لرابين عند عودتي إلى إسرائيل منتصف نهار الواحد والعشرين من آذار، إننا قد وصلنا لنهايـة المطاف، احتـج، متعللاً بأن تفويضنا وزارياً مطلوب لقطع المفاوضات ـ كما لو أن للفريقين الحق الشرعـي بمطالبـة الولايات المتحدة بمتابعة توسطها. لكن في حقيقـة الأمر كانت تلك محاولة من رابين لإعطاء زملائه فرصة أخيرة لتغيير تفكيرهم.

نظـراً لأن 22 آذار كان يـوم سبت، خلق يوم الراحة اليهودي فجوة أخـرى، فاغتنمت المناسبة لزيارة ماسـادا، موقـع آخر قد شكل خندقاً للمقاومة اليهودية في وجه الاحتلال الروماني. كان دليلنا عالم الآثار البـارز (والجنرال المتقاعد) إيغال يادين، الذي قـام بالتنقيب عن الموقع. فعلى ذلك النجد الذي تذروه الريـاح والمُطـلّ على الصحراء، حوصر ألف مـن المقاومين اليهود الثائرين ضـد الحكم الروماني، وقد دمروا من قبل أربعة فيالق رومانية، فكان ذلك الموقع شاهداً على الإيمان اليهودي ووحشية الرومان.

اجتمعـت مـع الفريق الإسرائيلي المفاوض للمرة الأخيرة مسـاء 22 آذار بعد انتهاء فترة العبادة ليوم السبـت. كان الجـو سوداويـاً وكئيباً. حتى فـي هذه المرحلة المتأخـرة، فكر آلون وبيريـز أنه من الجدير بالاهتمـام النظر في نتائج المفاوضات لمعرفة سبب وصولنا إلـى ذلك الطريق المسدود، وأصرا على أن مصر لم تقدم أي تنازلات. على كل حال، فإن إعادة النظر يجب أن تتم في وقت آخر. وقد لخصت وجهة نظرنا عما حدث:

السيـد رئيس الـوزراء... ما كنا لنبذل ما قدمنـاه في الأشهر السبعة الماضية، لـو عرفنا أن الموقف الإسرائيلي النهائي سيكون هكذا.

وليس من الدقة بمكان القول بأن مصر لم تقدم أي تنازلات. فالقول الصحيح ربما يكون أن الجانبين قد قامـا بتقديـم التنازلات التي كانا قادرين عليها إلا أنها لم تكن كافية. إنه ليس بالأمر الهين على دولة عربية أن تقول لأول مرة بأنه لن يكون هناك لجوء لاستخدام القوة أو التلويح باستخدامها، وأن كل النزاعات بينكما سـوف تسـوى، من الآن فصاعداً، بوسائل سلمية، وأن الاتفاق سوف يبقى سارياً إلى أن يلغى باتفاق آخر، مع تقديم ضمانات من الولايات المتحدة بأن مصر لن تشارك سورية في أي اعتداء أو حرب ضد إسرائيل، وبأن فتـرة بقاء قـوات الطوارئ التابعة للأمم المتحدة سوف تمدد أوتوماتيكيـاً إلى زمن غير محدد. كان هنالك أيضاً تأكيدات للولايات المتحدة بأنه مهما حصل في جنيف فإن نتائجه لن تؤثر في الاتفاق..

كان مفهومـاً أن المفاوضـات سوف تدار من منظور استراتيجية شاملة تحقـق مصلحة إسرائيل بالدرجة الأولـى، مقابـل تمكننا من السيطرة على الشـؤون الدبلوماسية. اسألوا أنفسكم مـا يمكن أن يكون عليه موقف الولايات المتحدة في جنيف دون خطة، حتى بالنسبة لأكثر رؤساء الولايات المتحدة كرماً وحباً للخير. إن هذا لكابوس بحق ـ وما أراه الآن أن الكرة في ملعبكم، والتنازل عن 10 كيلو متر من سيناء ليس بالأمر الكبير[1].

فـي تلـك الليلة وبعد اجتماع وزاري يائس آخر، أجاب رابيـن، دون محاولة تصحيح ما قد قلته: سيدي الوزير، أود القول كم أعجبنا بجهودك وكيف أدرت المحادثات.

أود القـول: «إننـا جميعاً حزينون للطريقـة التي آلت إليها الأمور، وأكرر أننـا حزينون. ليس لدينا أي نيـة سـوى الإطراء على الطريقة التي أدرت بها هذه المحادثات في ظروف صعبة للغاية. ولا يوجد أي شك بصدق نواياك وبما كنت تسعى لإنجازه، ونحن بحق ممتنون لك».

وبينمـا كنـت نازلاً من مكتب رئيس الوزراء فـي الطابق الأول، استوقفني وزيـر الدفاع شمعون بيريز، الصقـر الرئيسي فـي المحادثات. أكد لي والدموع في عينيه، أن ماقد حدث لا يعكس نواياه، وقد صدقته. فقد وضع بيريز نفسه إلى يمين رابين من أجل الحصول على رصيد أفضل من حيث الشروط، لا لإجهاض عملية السلام (كانت آخر مرة يستخدم فيها هذا التكتيك؛ لقد كان من الممكن أن يصبح بيريز الحمامة القائدة في حزبه).

وفي اليوم التالي، كان وداع رابين لي في مطار بن غوريون حركة لطيفة تدل على الاحترام والصداقة، لأنـه تبعـاً للمراسم الإسرائيليـة، كان ذلك من مهام وزيـر الخارجية. اجتمعنا وحدنا مـدة خمس عشرة دقيقة تقريباً، قال فيها رابين المعروف بقلة كلامه:

أريـدك أن تعرف أن القصة لن تنتهي عند هذا الحد. وكما تحدثت عن خطوات تالية، يجب أن تتذكر هذا: أحس أن كل جندي في قوات الدفاع الإسرائيلية كما لو كان ابني. وابني الآن بين تلك القوات؛ إن زوج ابنتي الآن قائد كتيبة دبابات في سيناء.

كان حديـث رابين هـذا، أكثر حديث مفعم بالعواطف قد سمعته من رابيـن على الإطلاق. وقد تأثرت فيه بشدة. لكنني كنت أعرف أيضاً، وأنا أتامل ما كنا نخطط له، جنباً إلى جنب مع رابين، أن طريقاً أكثر وعـورة يمتد أمامنا. وقد تعاهدنا أننا سوف نبذل كل ما بوسعنا لاستعادة الصداقة الأمريكية الإسرائيلية التقليديـة، مدركيـن أن الأنصـار على كل جانب متلهفون كثيـراً لاتهام الآخرين بالنوايـا السيئة. وعندما تعانقنا أنا ورابين على سلم الطائرة، انتابني شعور ينذر بالشر مما ينتظرنا في المستقبل.

obeikandl.com